جسد فى ظل

قصص قصيرة

عبد النبى فرج

جسد في ظل

أسم الكتاب : جسد في ظل
المؤلف : عبد النبي فرج

الطبعة : الأولى ٢٠٢٠م
الناشر : منشورات أحمد المالكي
مصمّم الغلاف : حيدر الشويلي
التنسيق الداخلي : فلاح العيساوي
البريد الإلكتروني : fffhh9@gmail.com
الرقم الدولي:

رقم الإيداع في دار الوثائق والكتب في بغداد ( ) لسنة ٢٠٢٠م

العراق ـ بغداد ـ شارع المتنبي
هاتف: ٠٧٧٣٣٩٢٩٣٧٨ ـ ٠٧٨١٩٣١٣٣٩٥
بريد إلكتروني: hassanjasdrt@gmail.com
أحمد المالكي: Facebook

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق.

All copyrights are reserved, and no organization, organization, or entity may reproduce, transmit or transmit this book in any form or mode of transmission of information, whether electronic or mechanical, including copying, recording, storing and retrieving, Without the written permission of the right holders.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

عبد النبي فرج

جسد في ظل

قصص قصيرة

٢٠٢٠

﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ﴾

قرآن كريم

﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾

قرآن كريم

الإهداء

إلى أبى

الراحل عفيف النفس

القسم الأول

عابرة يوسف (١)

أراها كائنًا خرافيًّا رابضًا في جلالٍ ورهبة.. هي السرايا يحيطها سور عالٍ قديم به فجوات وبوابة حديدية هائلة، يسكنها الأغوات السود، والبنت الجميلة التي ترتدي خمارًا وثوبًا كحليًّا غامقًا وسلسلة من الذهب، تنتهي بهلال ثقيل مرسوم عليه أفعى، تسير في مهابة وعزة، ترنو إليَّ كلما أتت عندي في الدكان أو مرت على وهى في طريقها إلى المقابر، يسير وراءها عيال سود "مقلبظون "يرتدون ملابس بيضاء، على رؤوسهم سلال بها، قرص، فواكه، عيش.. ويقال: إنها تظل تطلق أصواتًا غريبة قرب مقابر تخص أسرتها دون أن يفهم أحد شيئًا.

الأهالي يخافون منها ويتجنبونها باعتبارها لها علاقة أخوية بالجن، تسخرهم في أذى أهل البلدة، وكل مريض وعاجز عن ممارسة الجنس يتهمها بأنها السبب حتى إنه كان هناك اقتراح لعمل وفد من أعيان البلدة ؛لكي يطلبوا منها التوقف عن أذى أهل البلدة في مقابل مبلغ من

المال يدفعونه لها كل موسم، ووافق معظم أهالي البلدة، حتى بصق الشيخ عبد النعيم وقال: أنا أحميكم منها. وقرأ آيات الكتاب وجعل الطوب يضرب بعضه ويتكسر بعضه ويبكي. ساعتها آمنت البلدة بقدراته الخارقة وأحسوا بالأمان لأول مرة منذ فترة طويلة ولذلك ساروا وراء الشيخ عبد النعيم، وأصبح هو وكيل الجان في الأرض والحامي للبلدة من الشريرة.

المهم...

عين خضراء تجرحني وتخرجني من كينونتي.. وتخايلني طوال الوقت وتفسد علاقتي بالمال والزبائن، وكأنني مشدود إليها بقوة خفية.

الآن أذهب إليها في السرايا بعد أن أرسل لي الخال رسالة محددة، (في انتظارك التاسعة مساء).

لا أعرف ما الذي يريده مني.. هل يريد أن يأخذ مني بالأجل؟ وما الذي أفعله لو ظل يسحب إلى أن أفلس الدكان؟ وهل بمقدرتي أن أمتنع عن إعطائه بالأجل، وهل ممكن مطالبته لو تأخر عليّ في الدفع.

حائرًا ورأسي يدور بهواجس تكادُ تصل بي للجنون،

أرجع وخلاص.. وإيه يعني. "ديك أم عايدة.." أخرب بيت نفسي عشان بنت "شرموطة" بنت كلب، أنا عارفها بنت ولا مَرَه ولا إيه؟ إيه المصيبة السوده اللي جت على دماغي، أرجع..؟

توقفت عن السير.

عندي وسواس ويمكن ما يكون فيه شيئ أساسًا مما أفكر فيه، يمكن ناس "كويسة"، مش معقول الناس دي تبقي وحشة، شكلهم حلو وحديث عايدة ينم عن أصول رفيعة، طيب لو طلع كل ده أوهام ووسواس قهري؟، يبقى ضيعت فرصة "عايدة" واحة حياتي المجدبة، أنا ممكن لو طلب مني شكك أقول: أنا معايا شركاء، بس هتبان صغير ومتردد ولا يعتمد عليك، وهيقولوا بتهرب.

مخيلتي ترسم للخال صورة شريرٍ لا أعرف لماذا؟ أنا مشوش، طيب يا ترى ما الذي قالته عني عايدة؟ كنت حذرًا بطبيعتي ولا أنتظر في النهاية سوى الغدر ولكن محبتي لعايدة وأمنيتي أن استحوذ على كل هذا الجمال جعلتني أغامر بالذهاب، وأنا أتوقع أن أسمع منه ما يجرحني، أن تكون عايدة قالت له إنني أغازلها ويريد أن

يهيننـي ويعرفنـي مركـزي، وأن عايـدة سـليلة الحسـب والنسب والأصول الممتدة في التاريخ لا يمكن أن تتزوج بقالا مثلي،

نفضت بقوة الهواجس ورددت: أنا كاتب.

ولكـن المشـكلة أننـي لـيس لـي سـند مـن هـذه الهوايـة العجيبة التي جلبت لي الشرور أكثر من أي شيء آخر، وعطلت مهنتي التي أتكسب منها ولذلك كل من فتح دكانـا اسـتطاع أن يبنـي بيتًـا ويشـترى أراضـيَ زراعيـة، ويستمتع بما لذ وطاب وأنا الوحيد الذي أقف محلك سر، نفس الملابس الرثة، نفس الأكل، نفس الشرب، لا جديد. بقال بلا إنجازات تذكر..

ما الذي يمكن أن أقوله أو أسرده عني يعتبر مزايا... أن أقول مثلا: إنني شاب مكافح ولدى طموح... ضحكت وأنا ممرور، يعني لو أنت ارتديت جسد ووسامة محمود ياسين أو حسين فهمي.. المشهد يكون بالفعل مؤثرًا وستخرج ببعض الألم والنبل الإنساني من موقف تراجيدي أما بهذا الشكل فسينقلب المشهد لكوميديا الفَارْس المبتذلة التي تضحك طوب الأرض.

الليل حجَّم عيني، تحركت بقوة القدر وبقوة الخيال المريض الذي أغوص فيه بقوة جرار زراعي. تركت البلدة ورائي والخلاء خلق لي كائنات هلامية.. هل كنت أغنى؟ وتوقفت وأنا أرى السرايا تتفكك وأنا أهم بدخول الممر الذي يؤدى إلى الباب وخرجت منه جنيات مسحورات.. يسرن زحفًا حتى أحطن بي، كائنات بشعة وهلامية والنور الذي اندفع من عيونهن أضاء لي المكان.. حلقي.. جف عين واحدة متتالية تميزهم، وشعر أسود كث يغطي جسمهم، وفم غوريلا وأسنان من القصدير... الصراخ لم يعد يجدي. أنت ميت، صوت يقيني وقاس ينير لك المستقبل.. أرى أمي وأنا أجزاء متناثرة تضع يديها على خدها، ودموعها تسيل ورجف لجسدها لا ينتهي.. هل من آخر؟ هل أنا أخوض في مدارات "كافكا" الكابوسية، أم أنني في واقع علىَّ اجتيازه بقوة. وعندما تقدمت واندفعت بقوة الغريزة مثل سهم مخترقًا الحصار البشع الذي تمزق وكأنه ستار عنكبوتي ضعيف، غشاء رقيق لم يكن في احتياج إلى كل هذه

القوة التي استخدمتها حتى كدت أسقط على وجهي... وترتني.

دفعت الباب الضخم المصنوع من الحديد الثقيل بعنف، فأصدر شرخًا أربكني وجعلني أوقف زحفه... وأمرُّ بجانب جسمي وأسير في الحديقة مصوبًا عيني في اتجاه واحد متحاشيا النظر إلى أولاد آوى... الفئران... الحيات الراقدة، بجوار جذور أشجار الكافور... الجوافة... الكازورينا التي تحيط بي، تطل وكأنها تترصدني وتتحين الفرصة للانقضاض على. جريت وصعدت درج السلم محاولاً أن أبدو رياضيا، وأخذت أدق الجرس في عنف إلى أن فتحت لي الباب امرأة عجوز ضامرة تحمل بيدها فانوسًا وفي يدها الأخرى سلسلة مفاتيح عتيقة مرسوم عليها جعارين وصلبان وزهرة اللوتس وهلال..

أخذت تدعوني بالدخول وأنا مرعوب من فمها الخالي من الأسنان ولسانها الأحمر ووجهها الذي ينز منه سائل يشبه الشمع يقطر على جلبابها الذي تراكم حتى شكل قبابًا.

أخذت أنظر إلى الرسوم المحفورة على الباب العتيق؛ رسومات غريبة تتداخل فيها هويات كثيرة جدًّا حتى عجزت عن تحديد هويتها،.. كنت خائفا من الدخول، وكأنني ارتديت قميصًا من الجبس الذي خنق روحي، حتى امتدت يدها نحوي وشدتني من ذراعي، وسارت بي في البهو الواسع وبدت الكراسي المذهبة المصفوفة مغبرة وممزقة وقد تناثر قش الأرز على البلاط، والسجاد متراكم والشمعدان والنجف ينير إنارة باهتة بفعل كمية الأتربة التي تلتصق باللمبات.. ثم صعدت بي إلى أن انتهت إلى الطابق الثاني، ودقت على الجرس ثم تركتني ونزلت إلى الدور الأرضي دون أن تقول كلمة، فتح لي الباب وجدت الخال في مواجهتي يرحب وكأنه يعرفني من مدة، خجلت ولم أجد شيئًا أقوله سوى أن أبتسم ابتسامة باهتة:

أهلاً.. أهلاً.. إزيك يا أستاذ.. يا مرحبا..

كان ضوء الصالون مبهرًا، والشقة تبدو مرتبة وأنيقة، بساط من السجاد الفاخر.

جلست على الكرسي وأخذت أنظر إلى الصور التي ملأت الصالة وباقي أجزاء الشقة الظاهر لي..

فرسان على خيول مطهمة، باشاوات في لوحات قديمة توحي بتوغلها في الزمان، نساء يرتدين قبعات عليها ريش، وأثواب فرنسية الصنع، أغوات، عبيد، جمال تسير في صحراء ممتدة بلا نهاية، خناجر، أفاع محنطة ومصلوبة، كرابيج، لوحة بالخط الكوفي " قل هو الله أحد"... صور الجبال ممتدة يغلب عليها النور، أيقونة للعذراء.. مسلة. وكأن هذه الحيوات الكثيرة التي تحيط بي لا تحتاج إلا إلى أن تخرج من توابيتها لتهجم عليّ.

انهكت وكأنني داخل صراعا مميتا، مع أنني طوال عمري أهرب من الصراع، أريد أن أحتفظ بكل شيء داخلي كما هو.. دون أن يمس فأنا لو مست ذاتي الوارمة أصلاً ستكون نهايتي.. ولذلك فإن المغامرة بالنسبة لي نوع من الجنون. ولذلك اعتقلت ذاتي بين الدكان وتعاسته التي لا تحتاج بالتأكيد إلى شرح لأن الشرح في تلك الحالة غير مفيد كفي الغم الذي أنا فيه الآن...

جلست أنتظر...

"يا مرحبا داحنا في غاية السعادة بوجودك معانا الليلة"
ثم أخذ يطبطب عليَّ حتى تصورت أنه يسخر مني أصبت بمرارة ويأس قاتم وقد نبت عرق خفيف على جبهتي
- أهلاً بيك أنا خايف أكون أزعجتك
- لا يا رجل... إزاي دا حتى ست عايدة بتشكر فيك
- عايدة؟!
- آه.. بنت أختي...
- عايدة ذات العيون الخضراء والصوت الهامس الناعم، والتكوين الدقيق بنت أخت الخرتيت مجدور الوجه؟!
تركني ودخل إلى عمق السرايا، ثم عاد وفي يديه صينية من الفضة وعليها كوب عصير برتقال أخذ ت أنظر إلى رأسه الأصلع الممتد كنمس البطيخ وعيونه الجاحظة حتى انتابتني موجة من الضحك كتمتها وأنا اهتز.
برق خطف قلبي، وهي مندفعة تجري في مواجهتي حتى تحققت مني؛ فتراجعت مرة أخرى بنفس القوة التي دخلت بها....
- تعالي تعالي يا عايدة.. دا مش غريب.
لم تأت عايدة وهو ينادي حتى أحسست بالحرج..

- خلاص يا حاج سيبها براحتها.
- أصل هي خجولة خالص.
أظل أنصت لكلامه وعيني في عينه، بعد أن أدرت وجهي ناحيته، ورغم ذلك أسرح في مكان آخر حتى يتوه مني خيط الكلام وعندما أنتبه على صوت أتصور أن الذي أمامي ليس الخال بل شخص آخر أو أن داخله شخص يتكلم بدلاً منه، وعندما ألتفت يصدمني وجهه الأصفر المميت الذي ينظر لي في حياد كامل، حرت وبدوت ما بين الخوف والقلق والرغبة . هل يريدني أن أخرج؟. سكنت وابتعدت بنظراتي تجاه الحائط. ماذا يدور في ذهنه؟ أتيت من أجلها؟ وفي حماس مفاجئ أتكلم عن الجنة والنار والحساب يوم القيامة والعفة والأخوة المفتقدة. وأشاور بيدي حتى أن عيني كانت تغزوها الدموع مع أنني أتألم بعايدة.. ثم سكتُّ فجأة أيضا..
تركني وفتح سحارة بجوار الحائط وأخرج منها نايًا قديمًا وجلس جواري وأخذ ينفخ فيه.. وصوت الناي يخرج خافتًا ومرتجفًا لم يكن نافخًا محترفًا، ورغم ذلك بلغ تأثير صوت الناي علىَّ كما لم يبلغه أي عازف محترف،

كنت أرتجف من قسوة الصوت، ووجهه انقلب وكأنه جزء من الناي، وكأن الناي خلق وجهًا حتى استغرق في العزف وتحول صوت الناي إلى أنين يشبه البكاء، ألم خالص أو عبودية خالصة، ارتجف لها جسدي، ينفخ وعروق رقبته تكاد تنفجر حتى أنني جرى لي ما يشبه الغيبوبة من التعب المضني فلم أرها وهي تلبد جوار الخال، وعيناه تجوس في المكان وكأنها لا ترى أحدًا

خلعت الخمار فبدا وجهها منيرًا وموردًا وبديعًا وبدت شفتاها مكتنزتين وحمراوين ثم وقفت وبدت تدور حافية وتنتقل في رشاقة فراشة حول مركزها.. ثم نزعت غطاء الرأس وتدفق شلال من الشعر الأصفر، تناثر على وجهها وظهرها وهي تتمايل وتهتز على صوت الناي، والضوء يخفت والحجاب ينزلق عن ثوب شفيف ملتصق بالجسم الذي عرق فبدا النهد والأرداف، السيقان، السرة، والخال تترقرق في عينيه الدموع..

يزداد صوت الناي عويلاً وتقطيعًا، وأنا غير قادر على السيطرة على جسدي الذي يرتجف ارتجافًا عنيفًا حتى صرخ الخال صرخة رجّت السرايا، ومزق ملابسه وبدا

كتلة من اللحم الأسود، وخطوط فيما يشبه الكرباج متجعدة وشائهة تسم جسده. يقف في وسط الغرفة وعضوه نواة صغيرة، يسكر كدرويش مجذوب وعيال سود صغار تدخل بالطبل والمزمار والرق يحطن بعايدة، وسكرًا سكرًا يشبه الرقص ورقصًا يشبه السكر وقد بدا جسدها العاري يكاد يضيئ.

عابرة يوسف (٢)

شرك منصوب.. وأنت تراه وتعلم أنك لو انتظرت، لو تحايلت قليلاً لانتصرت.. ما الذي جعلك تندفع نحو الفخ؟

أغلقْ الدكان..

كنت تعلم نقاط الضعف، ورغم ذلك لم تستغلها رغم أن الذين تتعامل معهم قتلة.. يحاولون ابتزاز مشاعرك.. لا تنصت لهمهمات أمك و"الوكسة" التي أنت فيها.

أخرج موسيقى تسري رقراقة في جسد الليل - ليل خئون مراوغ والنجوم الكثيفة تلمع في وميض خاطف فيرتعش القلب.. قمرا يضيئ - صمت أحبها.. أصوات الضفادع تربكني وأنا أقترب من السرايا. وأفكر ماذا أقول؟ ماذا أقدم من تنازلات؟ سلاحفُ تخرج من تحت الأشجار، وتطل برأسها عليَّ، وخيالات يضعونها أمامي لكي يستنزفوني.. ورغم ذلك أخرجُ أسلحتي... أحاربهم.. أنازلهم.. أضربُ والدمُّ يتدفق، أغوص في نهر من الدم..

حتى أصلَ... روحي منهكة.. وأعلم أنني لن أراها، وأن الأم ستلبد بجوار الخال وتروي حكايتها الخرافية عن عايدة وأن أحد العرافين، قد ضربه الزمن عندما رأى عايدة اقترب منها -وكأنه تذكر شيئًا- فتح يديها وهمس إليها: البنت مكتوب لها الملك.

قال ذلك ثم سار بدون أن يلتفت..

وأسمع همس عايدة وضحكتها الرائعة التي ترقرق في السرايا. والخال يجلس أمامي يقرض في أظافره بفمه.. ويرحب بي ويصلي ويبتهل إلى الله بصوت عال.. ثم يستغرق في التسبيح حتى انتهى.. ونظر إلى داخل السرايا.

- يا سلام يا عايدة إزاي يا بنت تلبسي قميص نوم بس.. داحنا في الخريف.. أنت مش خايف من البرد؟!

- أنا بموت في الشتاء يا خالو... أنا اتعودت على كده

أقف أحدق في الخيالات القائمة أمامي.. أتقدم.. طيفها يرتفع في غلالة رقيقة بيضاء تحجب عني وجهها الوضيء وجمالها الرائق، وأنا مدفوع نحو طيفها الذي يرتفع في السماء...

غارق في البرية الموحشة وبي صرة من مرارة ترجني.. أما من نهاية؟ أما من آخر، الزمن يمر وأنا في الثلاثين، وروحي متعبة وبي رغبة أن أعيش حياتي، وأنا أنزع عني قميص الجبس الذي وضعوني فيه وسيَّروني في طريق واحد، اتجاه واحد، لا رجوع فيه..

أنت خاسر.. انسحب.. ستخرج من الحرب خالي الوفاض بلا شيء.. أنت قاعد لِمَ ؟ هل قراءتك للشعر والقصص جعلتك تنفصل عن الواقع وتضع على عينيك غلالة لا ترى شيئًا إلا عالمًا ورديًّا حالمًا.. وموسيقي ذات نفير، تربك فوضي جسمك.(إيه ياد.. بطل فكرة الاستشهاد.. وانس حكاية الخمرة اللي طالعة في دماغك قوم اعلنها واضحة قاطعة) بأنها ليست طيفًا.. ليست خيالاً.. بل لحمًا يغريك بالدوران حوله، جسدٌ أبيض خالص له أسر بديع مركز في شفاه تكتنز قطعة من جمر، تتألف وسط وجه بديع.. وأنت تنزل ببطء وراحة وتمص شفتيها في مهل وتستحلب ريقها وهي تغمض العينين، تسمع صوتا لينًا لطيفًا.. بس كفاية الشفة اللي فوق وتتركها ينزف الدم منها.

أغلق النافذة
دع الفراشة تسمم غيرك.. تحلم ببحر، زورق.
توقف على تتبع دقات قلبك
هي عايدة.
تقف على قبة الروح.
أطلق لحيتك إذن.
ما زالت لك رغبة.
أخذت أجري في الحقول، لعَلي ألحق أي شيء حتى تعبت، وكلَّت قدماي ؛فظهر لي رجل كقطعة من الطين، يجلس تحت شجرة توت شائخة تساقط الورق منها، شيخ طاعن له لحية من هشيم هاشٍ، وله عين متقدة جلباب ممزق على العري نحيل يكٌاد لا يبين.. اقتربت منه وأنا خائف ألقيت عليه السلام .. لم يرد.. ثم أخذ يحكي لي عن طفولته البائسة وحياته التعسة.. ويحكي وبه نبرة فرح، وكأنه يتلذذ بالألم الخالص حتى استحضرت آلامي، وأصبحت كأنني جزءاً منه وكأننا اختلطنا أنا داخله وهو داخلي حالة سيولة يوحدنا الألم أشعر به يتآكل من الداخل حتي تحشرج صوته، وبدا

كصوت قطة أكلت أولادها وأخذ يلوِّح في الهواء وكأنه يحارب مجهولاً.. وخيل لي أن الرجل يتحول ببطء إلى شكل قطة.. الوقت مر والسماء تلونت بلون الدماء.

نظرت إلى الرجل لم أجده.

عابرة يوسف (٣)

ادّعِ أنـك محـب، وأنـك مـريض لكـي تنتمـي بجـدارة للرومانتيكي الذي تريده، ولا تنتظر حلول المساء، اخرج في عز الحر، لا غمامة فوق رأسك تقيك قيظ يوليو، ولا نسمة رقيقة تتبعك، والشجرة التي تحتمي بها تساقطت أوراقها، وتدور مع ظلها الشحيح قلقًا.

- لماذا لا تغني مثلا؟ غنّ، كنت تغني بصوتك الأجش قبل أن ترتدي سيمياء الممثل الذي كنته زمان، يوم أن وقفت على خشبة مسرح معهد الفنون المسرحية، وكان "عطيل" يتلبسك، وكنت غِرًّا، وخضت المأساة حتى انتهى "سناء شافع" من ارتشاف القهوة، وكان فشلاً ذريعًا، وستعرف بعد ذلك أن "سناء" كان لينًا معك، وأن أنصاف المواهب سيقطعون عليك الطريق آلاف المرات، وأنت لا تكل أبدا، إيه، أنت نبي، غن أولا، صوتك أجش، أعرف، المهم أن تغني، كل شيء معد لك، الديكور، الملابس، النص، المسرح، الشاي.

لماذا لا تدخن؟ ادخل واجلس على الكرسي، وضع قدمًا على قدم، وانظر إليهم بنظراتك الوقحة الخالية من الحياء، ولا تلق بالاً للمحبة التي كانت، ولا للمستقبل الذي تراه معها، وأعصابك التي كانوا يرونها تتفتت، أنت لا تحب أحدًا، ولا تقل: إنهم مستنقع، أنت الذي خضت في المستنقع، وتركت لهم الحبل حتى يلتف حول أعناقهم، وبعد ذلك تعلقهم في السَّحَابِ الْمُسَخِّرِ، أنت نسيت الحبل، كيف يعني أن تحب، أنت تمثل المحبة جيدًا، حتى تأمنهم ويأمنوك، وتدخل الشخوص وتخرج في يسر، غمضة عين، ولم تفاجأ عندما استوقفك الفلكي الطيب في شارع "عبدالخالق ثروت"، ونظر إلى وجهك في هدوء، وقال: "أنت كذاب، ولا يهمك غير مصلحتك" قبض على وجهك في أشد لحظات الضعف، هل انهرت وأخذت تدافع عن نفسك، ثم ابتسمت وأخذت تقهقه، وماله، هل من الممكن أن تخلق شخصية غير شخصيتك؟ يعني لو أن لديك أماني طيبة جدًّا وتريد أن تكون الطيبة جزءاً من نسيج شخصيتك هل تستطيع أن تزرعها بالقوة، هل هذا ممكن؟ أنا أحب مصلحتي

وأقولها بصوت عال وأحب "الفلوس موت، إيه المشكلة، دا يـديني فرصـة لأحقـق أهـدافي بسـرعة دون مماحكـات وديـاولو

نِجِيب من الأول.

قمر صغير ينير الحديقة، وتظهـر النباتـات الصـغيرة وديعـة، والنـافورة التي في وسـط الحديقـة تـدفع المـاء في صـرامة وعنف، وأضـواء النيـون تصـطدم بالمـاء، فيحـدث وشـيشٌ ناعـم لا يبيـن ، أشـجار العنـب خاليـة مـن الثمـار، وأوراقهـا تتكسـر تحـت حـذائي، ولـم يعـد لـدى سـوى قلـب ميـت، وعين مفتوحـة على آخرهـا، دخلـت، كـان البـاب مفتوحًـا، وعندما رفع قامته، ورآني حيـاني بمـودة وألفـة كـان الخـال الـذي اسـتغرق فـي النـوم، يحـاول أن يبـدو سـعيدًا فـي وجـودي، ورغـم ذلـك أرى تـوتره، وهـو يعصـر الملابـس، ثـم وهـو يحمـل الطفـل بيـد، والوعـاء البلاسـتيكي علـى رأسه، ثم عاد ومعه بزازة وضعها في فم الطفل، واحتضـنه بقوة.

أنا كنت بأكره الأطفال الأول، دلوقت أنا حاسس إن ابني ده حتة مني، والله والله حتة مني.

كان يضغط على أسنانه بقوة، ويدور في الغرفة، ويطبطب على الطفل.

قلت للست الهانم ترضع الواد ألف مرة، مفيش فايدة ـ دي عايزة تعذبني مع إن المفروض تهديني (وأخذ يضرب على صدره) الحنان، الحنان.

أخذ يروي لي ما جرى له مع زوجته، وكيف أذلوه تماما، وكم الألم والمعاناة حتى أنه في طريقه للجنون، وأنه أصبح غير قادر على الاستغناء عن الموس ، ثم رفع الجلباب وأراني جسده وبدت إليته بها تسلخات وقروح وخراريج حتى أنني لم أعد قادرًا على النظر إليه، ولم أعد أعرف الدموع التي تترقرق أهي في عينيه، أم عيني، حتى دخلت الزوجة، وعندما نظرت إلينا انفجرت في ضحك هستيريّ، ثم اقتربت من الزوج، وأخذت تملس على رأسه (جوزي دا نمس) ثم جلست، ووضعت ساقًا على ساق، تجاهلتها تمامًا، أو حاولت أن أتجاهلها رغم ذلك ظلت عيني تتراقص بين جسمها الشهواني والخال، وأخذت أروي حكاية طريفة تعرضت لها في الدكان، حتى وقف فجأة، وأخذ يزعق في زوجته بأعلى صوته:

إنت إزاي يا هانم تلبسي اللبس ده، أنت عايزة تجنينني وخلاص، إنت شايفاه عمال يبص على جسمك طول الليل.

غرقت في عرق بارد، وأخذْتُ أتهتهُ، وأقول كلمات لا رابط بينها حتي راح الكلام وقد أصبت بمرارة، فسكت. لم أستطع القيام، كان رد فعلي مدهشا، وكأن الكلام الخارج من فم الخال يخص غيري لا أنا، وكأن الإهانة للحوائط. كنت باردًا بشكل مدهش وتصورت في لحظة أن هذا البرود هو الذي سيحميني ويجعلني أفوز بعايدة في النهاية وليس على سوى الصبر، وقوة الاحتمال، وعندما تكون في ملكيتي سيتم نسيان كل ذلك وسأحصل على كل المتع والرغبات التي أريدها. أنا اشتهيها فعلا، ولن أسكت مهما طال الزمن حتى أستمتع بكل هذا الجمال المدهش، نسيني الخال أم أنني الذي نسيته؟ حتى انتبهت على كونه يغني ويناغي الطفل وهو سعيد، يدور في الغرف، وأسمع عايدة من داخل البيت تتكلم في التليفون، وبدا صوتها مثيرًا، وكان الطرف

الآخر كما عرفت من سياق المكالمة رجلاً، وهذا الأمر كان يعذبني بشكل غير متصور، ولكن تجاهلت الأمر.
كان صوتها يصل إلى درجة التأوه، حتى أنَّ المنيَّ نزل مني في انتفاضات ورعشات قوية، ثم سكنت، طلبت دخول الحمام، فقام وهو يحمل الطفل وسار وأنا وراءه حَتَّى أَرَانِي الحمام وتركني، غسلت نفسي ونظفت مكان المني وغسلت وجهي، ثم خرجت وجلست وحدي، فسمعت صوتًا عاليًا، وجدلاً عنيفا بين الأم وعايدة حتى دخلت الأم عليّ وشعرها الأحمر المصبوغ بالحناء منكوش، وهي تلطم خدها في قسوة، وتدور في الغرفة: أنا حاموت نفسي، حاحرق نفسي، أجيب جاز كده وأولع في نفسي.
جلست على الأرض لكن عايدة دخلت: "إنتي إزاي يا مجنونة تقولي الكلام ده قدام الغريب؟" بدت عايدة عدائية حتى إنني خِفت وهي تنظر إليَّ في قسوة وبرود ، وزاد وجهها صفرةً، ثم ابتسمت الأم ونظرت إلى عايدة في خبث، وأخذت تغني:
بعد بيتنا ببيت كمان حلو ساكن من زمان.

وأخذت ترقص وتصفق بيدها، وتدور في الغرفة، وعايدة تُومئ لي بعين صغيرة في مكر وخبث لذيذين. هل ابتسمت لي، أم أنا الذي تخيلت ذلك، ثم قالت: أنا مش عارفة بتوع القصة بيكتبوا حاجات كده. مطت شفتيها: قصص وحشة يا ماما، قلة أدب خالص.

أخذت أقهقه ونسيت إحباطاتي ومذلتي وهواني وكيف أنني في سبيلي إلى التشوه والتفريغ من الداخل، وتساءلت من أين ينبع العنف في الداخل وكيف يكون وجه بهذه البراءة والوداعة بهذه القسوة، أتأمل الوجوه وأنا أعرف أنني أُخْدَعُ بطريقة متكررة لإيماني بالوجه وأن هذا الوجه هو الكاشف الوحيد عن داخل الشخص ولذلك دائما ما أدقق في الوجة شكل الجلد، الأنف، نظرة العين، طبقات الصوت وفي النهاية فراستي دائما فاشلة وكل الذي وثقت فيه من خلال قراءتي لوجهه خاب أملي فيه، نسيت ماذا فعلوا معي وأخذت أروي حكايات لا رابط بينها، وهي تنظر إليَّ في لا مبالاة حتى التزمت الصمت، فتحت التلفزيون ورفعت الصوت، وأخذت تنظر إليه، وأنا هارب بعيني إلى الفراغات، حتى

أنني غفوت وصحوت على ضوء قوي، كانت كاميرا سينمائية تدور موجهة أضواءها نحو جثث الخال، الأم، عايدة. وقد تعفنت، وديدان صغيرة عيونها زجاجية تخرج من الجثث، بحزمة ضوء قوية نحوي، لتبعدني شيئًا فشيئًا.

عابرة يوسف (٤)

سرب من النساء المنتقبات يمر من أمامي.. أنا الواقف في الدكان أنصت لـ"شوبان" متعة أو رغبة في التمايز، لست متيقنًا من شيء؟ من أين تأتي كل هؤلاء النسوة؟ ينبثقن كأنهن زهور الوران السوداء، التي تنبثق مكتملة ثم تعود لتطوي أوراقها مرة أخرى إلى الداخل. أنظر إليهن في استسلام قدري وكأنني إزاء سد مأرب وهو على شفا الانهيار، ولا أملك وسيلة لوقف الكارثة لا يوجد لا توجد آلة تمنع الكارثة سوى يدي، أقف مرعوبا وممرورا من تلك البداوة المجسمة سيرا على أقدام ممتلئة وملفوفة في شرابات سوداء وعيون تتلفت في حذر أو عداء يتجاوزونني ونظراتهن لا يمكن أن تحددها هل هو إغواء أم عداء؟ لم يعد شيئً واضح تماما، الرمادي أصبح سحابة ضخمة تغشي عيني.

يصلان إلى سراي هند قرب المساء ويغلقان الباب والسؤال يلح على كيف يمكن فض مغاليق هذا الكون الذي اسمه هند؟

عندما أتت عندي في الدكان أردت إحداث شرخ ما للدخول لهذا العالم الغامض، كنت منتشيًا بالفعل فأخذت أحكى عن أميرة خرافية الجمال تحلم بأن تطير فوق المكان الذي تعيش فيه إلى عالم غير محدود، وعندما فتحت عينيها وجدت نفسها تطير بالفعل، كانت سعيدة حد الجنون إلى أن تذكرت أسرتها فسقطت من عل على صخرة ضخمة وتناثر دمها.

نظرت بنصف عين لعلي ألمح اهتماما أو رغبة في الإنصات لكنها بدت لا مبالية، ثم وضعت ورقة الطلبات في حياد، استلمت الورقة وأنا أشعر بضآلة الشأن. انتهيت من وضع الطلبات في كراتين، وقدمت لها الحساب، فأخرجت حقيبتها الصغيرة وأخرجت بضع أوراق من المائة جنيه وناولتني ثلاث ورقات، وضعتهم على البنك، وطلبت منى أن أرى سيارة لتوصل الطلبات، قلت بحدة:

وأنا مالي، هو أنا كاتب لافتة مكتوب عليها "توصيل الطلبات للمنازل"؟.

قالت: أنا آسفة، باين أخطأت. شعرت أنها صبت علي ماءً باردًا، بخاصة أن لها طريقة راقية في التعامل، وعندما خلعت النظارة كانت دموع تتجمع في عينيها..

تركت البنك وذهبت إلى آخر الدكان وأنا أشعر بالخزي، وكم أنا منفعل ورأسي مملوء بالهواجس والظنون والوساوس القهرية التي توجهني وتدفعني للخسران.

أغلقت الدكان في المساء وذهبت حتى اقتربت من السراي، أنا الدرويش المغبون في كل الأزمنة، تحت هالة من الكبر والتواضع والمحبة الزائفة، أدور حول السور، وبي رغبة لاقتحامه، وأعلم أن الجوهرة تتألق هناك وأن بقائي في الخارج فيه تلفي وهلاكي، وإن كنت أعلم أن هذا البيت مرصود وأن قدري هو أن أدور حوله في رحلة أبدية حول السرايا التي ترقد في ثبات وجبروت، رغم ما يبدو عليها من قدم. وقد افترضنا أنها ستهدم على يد الأميرال يوسف عبد الرحمن الضابط في سلاح الفرسان، بعد أن تمت إحالته إلي الاستيداع، بعد شائعات عن دور

لـه فـي التـآمر علـى الثـورة وإصـابته بطلـق نـاري، قيـل إنـه أطلق خطأ من بندقية صديقة، أصابت العمود الفقري وقد نجـا بأعجوبـة، فقـط شَـلَّ وخـرج مـن المستشـفى علـى كرسي متحرك، وضاع أمله في أن يكـون سـفيرًا "لمصـر في بلجراد". استقر على السرير ووجهه يتقلب بين الأسى المريض والفرح المُعَذَّبْ، وهند راكعة على ركبتيها في مواجهته وهى تردد: أحبك أيها المحب.

والأميـرلاي ينظـر إليهـا مدهوشًـا "ومرعوبًـا" مـن زهـور النوران التي تنمو على وجهها، وكأنها خفافيش صغيرة.

قـال: هنـد أنـت روح طفلـة وأخـاف عليـك مـن دنـس المدينة.

أداء مـدهش زرع فيهـا توهجًـا جعلهـا تفكـك محتويـات الشقة، وفى الصباح كانا مغروسين في ربوع الريف وظل داخل السراي من ٦٢، إلى ٦٧ يقرأ القرآن متابعًا الجرائد والمجلات التي تتناول أحدث الأسلحة وبؤر التوتر في العالم، وكل حين تنتابه موجات عنف لا يستطيع خلالها السيطرة على ذاته، يقذف زجاج الشبابيك بأدوات الزينة الخزفية، وحوض السمك الزجاجي، ويمزق الستائر التي

يراها واحدة من الأسباب الرئيسية في عقم الواقع وتحلله، يجأر بصوت درامي عتيق يناجى الله لتفكيك هذا العالم الداعر.

هند التي كانت ترتدي البكيني وتسير على شاطئ البحر مكتفية بذاتها، باعتبارها حالة فنية أكثر من كونها واقعا "حيا" حتى وهى ترتدي الحجاب، وتسمع التواشيح، وتقرأ القرآن، وتنام مبكرا لكي تنغمس في الحلم، وتشكل هذا الحلم حسب مزاجها الشخصي. وفى ليلة رأت نفسها تسير في صحراء خالية من البشر، وكف قدمها تطبع على الرمل، وينمو مكانها عشب، رغم أن الكون يمور بريح عاتية، ورغم ذلك لم تستطع الريح أن تمحو آثار أقدامها، ولأنها تؤمن بالحدس والحلم والخيال؛ فقد اعتبرت أنها مختارة لدور يتجاوز ذاتها.

وفى حلم آخر رأت نفسها وحيدة في صحراء، والسماء فوقها خالية من السحب إلى أن جاءت سحابة تركت الكون كله، وصبت عليها ماءً أسودَ قاتمًا قامت على أثره، أضاءت النور وصلت ركعتين في فزع، واعتبرت أن هذا الحلم هو نداء آخر ولذلك قامت وارتدت النقاب

لكي تحدث "توازنا" في هذا الكون المضطرب، وبخاصة بعد موت المحب، وزواجها من ابن عم لها، كان يقف في العزاء كالبرنس، هذا الغندور، الجميل الصورة والممتلئ بالحيوية والقوة عندما تم الزفاف، وقد كان يتوقع أن يغمره النعيم، اكتشف أنها عكس ما تصور "تماما" في هذا الجانب، فكان يظل "صابرا" حتى تكاد خصيته تنفجر، فيحلب ذاته ويجلس على كرسي خيزران أمام البوابة يتعجب من النسوة اللاتي يدخلن، والأجسام اللينة التي تستحق أن تغوص السكين في لحمهن.

وآخر الليل (يفرقع) نصف صندوق بيرة، ويلهث حول السرايا إلى أن تخرج الست صارخة: أنت تعمل اضطرابًا في الكون بصوتك المرعب وسلوكك المنحط المنحط.. مش كفاية إنك مش...؟

ثم تغلق الباب بقوة، الانسجام، الانسجام.

وهو ينغلق على ذاته، ثم يسير على المشايات التي تفصل الزهور في الأحواض المثلثة والمكعبة والدائرية، والتي جاءت حسب تصور الست. كان سكرانا، ينظر إلى زهور الفل، الياسمين، النرجس، بحقد ويراها السبب في

الخديعة. وفى يوم صمم -وهو قليلاً- ما يصمم على شيء أن يفض بكارة هذه السرايا، ولذلك قام مفتونًا بما يملك من فتوة وجبروت، لم يستخدمهم طوال عمره. في رشاقة لص صعد على مواسير المجاري وكسر شباك الحمام ودخل، ومنه إلى الممر الذي يؤدى إلى البهو، ومنه صعد إلى الدور الثالث، وتسلل إلى الصالة، ومنها إلى حجرة الأنتريه...

ابتسم وأوسع فرجة في الستارة فرأى خلالها النساء متخففات من ثيابهن السوداء، ولحومهن الشاهقة البيضاء تتألق ويتطوحن على صوت موسيقى ناعمة وجسومهن الطرية اللينة تهتز اهتزازًا "خفيفًا" حتى يمسسن بعضهن مسًّا، رُوِّع وأحس أنه قد تم إسقاطه، تركه تمامًا، كان في حالة ضياع لم يعرف إلى أي مدى إلا عندما سمع صوت "هند" يخرج منها عذبًا وصلبًا تهتز له السرايا وتشهق شهقات مروعة حتى لم يعد قادرًا على الاحتمال، أخذ يجري وينزل درج السلم في جنون، يبحث جوار الجدار عن بندقيته الميزر إلى أن وجدها وأخذ يحرك الأجزاء متوعدًا: لازم القحبة تموت.

يضع رصاصات ويضغط على الزناد لكن البندقية تكدب منه بسبب الصدأ، وفى عنف تجاربه انطلقت رصاصة في رأسه فتهشمت وسقط ميتًا، والنسوة المعتكفات اندفعن بعريهن إلى الخارج. كان ممددًا على الباب، تقدمن من الجثة وحملنها ودخلن به السرايا.

٢- زفرة الحب الأخيرة

في تلك الحالة التدقيق واجب في معرفة الفروق الطفيفة أو الجوهرية في مبحث العدل الإلهى لدى الإمام الغزالي والقديس توما الاكويني. هذا الدأب في البحث الذي جعلني أزيح ركام الكتب من على الأرفف وأرميها على الأرض، وأحتمل كماً هائلاً من الغبار والعنكبوت مما جعلني أبدو كبهلول يخوض في الوحل، الذي وصل إلى عنقه، وهو يتصور أنه يتطوح في جنة عدن. هذا الفحص الذي يكاد يودى بي إلى الجنون، ليس مرده بالتأكيد هذا الهوس بالقتل سواء في أفغانستان أم العراق. هذا الاحتفال اليومي الذي وقوده أجساد عراة تطير في السماء بلا أجنحة، ولكن شيئًاً أكثر جوهرية وعمقًا وهو الحر اللزج الذي يجعلني أكاد أختنق بالفعل، ولذلك خرجت للتحرر من كوابيسي المنزلية.

أدور على المشايات أتنشق نسمة هواء إلى أن تعبت، فرجعت بعد العشاء على ضوء الأنوار التي تزين فرح

مريم ورغم أنني أكره أفراح الأثرياء بالفطرة فإن هذا فرح مريم، وبخاصة أنه المكان المناسب الذي تحقق فيه السلام الاجتماعي الكامل فالعروس تحب العريس، والعريس أضاع نصف ثروته لكى يرضي العروس، والتكافؤ بين الأسرتين يمثل العدل المطلق. ثم هذا الطرب الأصيل الذي لا يتحقق وجوده في البلد، إلا كل حين.

انحرفت تجاه السرايا أرقب الحفل، العروس، العريس، الراقصة، المطرب الذي يقف كالفارس يلبس قميصاً أبيض وبنطلوناً أسود محبوكًا ووجهه أبيض حليق وشعره مدهون بالجيل، صوته بديع يحرك المايك في يده، ويجرى على المسرح في خطوات استعراضية جميلة ثم يقفز قفزة بدائية وحشية، خلقت نشوة بين المعازيم الذين أخذوا يصرخون ويرقصون، والعريس قام من جوار العروس، وخطف عصا من واحد من المعازيم، وأخذ يرقص في دلال وعهر قحبة، والمغنى يدور حوله والعريس يترك رأسه على صدر المغنى الذي قذف بالمايك للطبال وخلع القميص كاشفًا عن صف من

الأسلحة البيضاء تحيط بخصره، خطف المطواة وأخذ يطوحها في الهواء ويسحب الخنجر، السنجة، الساطور، السكين، حتى أصبحت فوق رأسيهما خيمة من الأسلحة التي تتألق وتنعكس على وجوه المعازيم، العروس.

العريس يتأوه في نشوة وينزل على ظهره في تدريجات وكأنه راقصة محترفة، حتى رقد على ظهره على خشبة المسرح والمطر ضم السكاكين وجعلها تنساب في نعومة وحدة في قلب العريس، والدم تناثر على وجه العروس التي صرخت:

- " حبيبي له في الغرام حاجة".

انفض الفرح وهرب المطرب، وتم تقييد الحادثة ضد مجهول، وأطفأت المصابيح في السرايا وفى اليوم التالي رحلت هند. ومريم ارتدت النقاب، وقيل إنها في هجرة دائمة إلى أين؟ لا أحد يعلم.

في أيام أخرى تسللت إلى عقل البواب وقلبه؛ لأنصت لحكايته الأسطورية ودوره العظيم في إدارة السرايا ؛حتى أعطاني المفاتيح وفتحت الباب فانطلق من داخلها هبو أبيض، خطوت إلى الداخل وهييء لي أنني أسير في لحم

أنثى يشبه صحراء من الكثبان الرملية وعلمت أنني في حلم، وأنني مطارد بالأحلام، ولذلك يجب أن أنتبه حتى لا أسقط في هوة الكوابيس حتى لا تدمر البقية من أعصابي التالفة، فتحت غرفة ؛فخرج منها صراخ أطفال وغناء وحشيّ مرعب والحجرة الثانية صلبان وأهلة ورايات وسكارى، ونخيل وأشجار جافة وزهور ميتة ومسامير تتبعني، جريت وقلت: لم أعد أحتمل الكوابيس المدمرة التي تعصف بي.

ضربت الباب الأخير لكى أخرج من الحلم والسرايا، ضربت برعب المقتول فانكسر الباب. كانت الغرفة فارغة تمامًا، ولها باب قديم ومتهالك يؤدي إلى خارج السرايا من الجانب الخلفي، وخرطوم مياه تنساب منه مياه باردة كأنها خارجة من مبرد. تقدمت وأنا حذر حتي وجدت قدمي تنزلق وأسقط علي ظهري وتصطدم رأسي بالبلاط. ظللت فترة ساكتاً حتي اجتاحتني فورة فرح؛ فضحكت وشعرت بالنشوة من الماء البارد، انتفض جسمي وبدأ ينزل مني سرسوب يبلل البنطلون لا أعرف إن كان ماء أو منياً، أُنهكت على إثرهِ، وتكومت على الأرض...

رامة والتنين: ١

(*) مهداة إلى أدوار الخراط

المهندس سامي نجيب الموظف الكبير بوزارة الري المشهور في القرية بالرجل الطويل، الذي كان يظل ساعات طويلة واقفًا أمام الباب في مواجهة الحديقة دون أن يتحرك فقط الاستغراق في التدخين والنظر إلى المساحات الواسعة من الأراضي المزروعة بالسمسم والتين وأشجار الفواكه حتى إن العمال لدى المعلم كانوا يتصورونه مخبولاً ولاسعًا ونهايته العباسية "إن شاء الله" حتى أصيب بداء لا يعرف أحد مصدره في صدره وطلب ندبه لري الفيوم كما أشار الطبيب، وانتقل إلى هناك مع الست (رندا) زوجته المتفانية حد الجنون وتعرف الخصال الدفينة الباطنية لزوجها الذي كان يحلم بأن يشتغل في الفن ويصبح مثل الفنان عبد الحليم حافظ وانتهى به الأمر حبيس جدران البيت، يستغرق في الشرب

يهذي هذيان المحموم ويؤلف موسيقي شريرة تجعلها مفعمة بالشهوة ويندفع في الاستغراق في ممارسات جنسية شاذة وعندما ترفض هذه الممارسات، كان ينزوي حتى يكاد يجف مرددًا: الجنس لذتي الوحيدة الباقية.

وعندما ماتت الست رندا وهي تلد ابنها عوض، اغتم وزاد هزاله وشروده الطويل، والسير في حدائق الفيوم وملاهيها وبحيراتها وعزف عن العمل في المصلحة، وأخذ يشرب في شراهة ويعود إلى البيت متأخرا حتى قرب الفجر...

وفي النهار يدور في الاستراحة ناظرًا إلى صورها المعلقة ذاهلاً، يخرج ويتأمل البنت عايدة البكرية، ويبكي في عنف (الشبه الخالق الناطق) ويمضي ذاهلاً. يخرج في عز البرد حتى تهتك صدره ومات في عز شبابه (قدس الله روحه وجعله مع المسيح في الأعالي).

عادت عايدة في صحبة أخيها وجدها المعلم نجيب، الي العزبة في ساعة متأخرة من الليل، وتم إنزال العفش وقام العمال بإدخاله وتخزينه في واحدة من الغرف الكثيرة في القصر وأغلق عليه بالمفتاح.

المعلم نجيب دخل غرفته وبكى وحده ثم جفف الدمع وخرج إلى حديقة البرتقال واتجه إلى المنحل وجلس على الرمل والنحل يطن فوقه ويسرح على جسمه ويقرصه وهو شبه غائب يخرج أقراص العسل ويصفيها في كف يده حتى تمتلىء وتنزل لتختلط بالرمل هذا الرجل الذي ترك العمار وناس أتريس ودخل في عمق الجبل وغرس بيت وطلمبة وشجرة توت وماكينة وأخذ يروض الجبل في صبر لا يلين، وعزيمة جبارة حتى حول صخوره وهاده إلى مزرعة كبيرة يزرع فيها البرتقال، المانجو، الجوافة، الليمون. وضع فيها خلايا النحل لتدر له الشهد (كل دا تم بالجهد والعرق وسهر الليالي وبركة يسوع ابن الرب)

في الصباح التالي ولدت الفرسه مهرة جميلة سماها المعلم نجيب عايدة، وأطلقها تصهل في الحقول. كبرت المهرة، كبرت عايدة ونبت نهداها فخرجت تقف في الفراندا وهي تلبس فستانًا قصيرًا حتى ركبتيها وحبل قطن يلف حول كتفيها العاريين منقوش عليه زهور بنفسجية، وعيناها الوسيعتان تبرقان في وجه الشمس وشعرها

الفاحم ينسدل حول كتفيها، وجسدها الريان بدأ ينمّل، وروحها الفتية تتقافز، وعندما أقبل جدها والست دميانة قبلتهما في فرح خالص.

تعالي يا بنت يا عايدة الكنيسة خلي أبونا يباركك، اشتعل اللهب في خديها وأطرقت في صمت.

خلاص يا دميانة هي حرة وسحب العباءة على كتفيه وسار وسط الحقول، وعايدة عيناها تبرقان في البراح تتبعهم حتى اختفوا.

اشتعلت الشمس وغاضت بالدم، وتسلل الهواء الرطب يطير ثوبها فدخلت إلى البيت وجاءت بالشرائط والبك أب ونزلت وسط الحقول تسمع أغنيات "أم كلثوم" فيروز، ماجدة الرومي عبد الحليم حافظ وتشم رائحة زهور الليمون الفواحة التي تدير الرأس حتى رأت المهرة عايدة تصهل فنزلت من على السلالم واقتربت منها فوجدتها مربوطة في قدم الصبي الأخرس شمندي بن عبد الله الكومي، الواد المقطوع الذي يؤويه المعلم في غرفة في آخر الجنينة والمتربي في المزرعة منذ كان صغيرًا، وكان يعمل بعلف البهائم التي يربيها المعلم...

كانت عايدة تقف فوق رأسه وهو لا يراها وشمندي عفي وعروق يديه تكاد تخرج من جلده، وعندما رفع قامته كان يبلل سترته الزيتية التي كان يلبسها على اللحم والغبار المتطاير يلتصق بلحمه وينزل مع العرق على صدره المشعر، رفع قامته رآها تقف أمامه، ترك الفأس واندفع الدم الساخن كله في وجهه الأخرس، وترك العرق ينز، وبص لوجهها الخلاسي، وسيقانها السمراء اللمعة، وعنقها الطويل والمعلق به سلسلة تنتهي بصليب مغروس بين نهديها، الولد ذهل وانفرط منه الدمع، مختلطًا بالعرق والغبار ونظر إلى السماء التي تكاد تنغلق عليهم، والشمس بدأ لهيبها الأصفر يختفي. اقتربت منه وغاص حذاؤها في التراب ومسحت دموعه بيديها الطريتين، وأخذت تمسح العرق عن رقبته ووجهه وصدره العاري.

اعتم الكون وسكن الكل في الغرف، تسللت عايدة من غرفتها، ومرقت من البهو وفتحت الباب مندفعة في اتجاه الحديقة تغوص في قلب الحشائش والقمر السائب يتبعها أينما سارت، وعندما سارت إلى شجرة المانجو تجده

هناك ينتظرها في قلب العتمة تبتسم وتسترخي عضلات قلبها، وتسير جواره تاركه يديها له، يسير بها في طرقات متعرجة حتى يصل إلى الغابة فيحملها ويغوص بها في وسط الماء وتطقطق الطحالب تحت قدمه العريضة الخشنة ويدفع بيديه الأخرى الغاب المهوش، وهي مستسلمة غارقة في فرح يحتوي كل كيانها حتى اجتازا الغابة وظهرت الصحراء عارية إلا من رمل ناعم، شجر عكرش منطو، وأشجار شوكية خالية من الحياة فيخلع سترته ويفرشها لها ويجلس على ركبتيه ناظرًا إلى واحة عينيها، والقمر يقترب يفرش الرمال التي تضوي، هسيس النسيم يتسلل إلى جسده العاري. سرعان ما يتساقط مطرٌ من عينيه، يلمع في ضوء القمر كحبات لؤلؤ فتقوم عايدة وتمسح دموعه براحة يديها، وتميل عليه وتقبله في صمتٍ تمص شفته السفلى، ويداها تمسكان شعره الهائش، وتتركه يفتح بلوزتها ويمس نهديها الصغيرين في خوف ورهبة حتى يتسلل الفرح إلى جسديهما ويشتعل الدم الفوار وتطقطق عظامها أكثر من مرة وترتعش ركبتاه

رعشات متقاطعة، ويتساقط الندي رطبًا على الجسد العاري.

وفي الصباح فرحة كانت تطارد فراشات، وتقفز من مكان إلى آخر حتى بدأ يدب في حشاها شيء كدودة ثم باعدت ما بين ساقيها.

(..يوه) قالت الست دميانة بعد أن نظرت وتعجبت وهمست في أذن نجيب، وأخذت تدور في البيت تراقب عايدة في توجس وخوف، حتى حط المساء وغطى على الكون، والمعلم يبتسم ويناغي "عوض" الحفيد وعندما كان الكل في مرقده، انسلت عايدة وسارت في قلب الحدائق، وخطا المعلم على خطوها حتى رآها وقبض على المشهد بعينيه؛ فعاد في حذر يدور في أروقة السرايا ودهاليزها المعتمة حتى عادت عايدة.

كان ينتظرها وبجواره الست دميانة، وشعرها الطويل هائشٌ وصدرها مفتوح، والصليب يرقد ما بين نهديها. اقترب منها المعلم ومزع الصليب من رقبتها: أنت خطية يا بنت، وكمان من مسلم.

وصفعها بعنف فسقطت على الأرض، ونز الدم من رأسها: خديها يا دميانة وراقبيها. سحبتها وصعدت بها السلالم وعايدة صامتة لم تكن تدرك ما جرى مرتبكة لم تعِ شيئًا، وكأنها مخدرة حتى وصلت إلى القبو الذي بناه المعلم في أعلي السرايا خصيصًا لأبينا كي يستريح فيه بعيدًا عن الضوضاء في أيام عيد الميلاد المجيد قبل أن تبنى كنيسة في "أتريس".

صعدت الست دميانة مع عايدة حتى وصلت فوق سطح السرايا، وأخذت تفك القفل الصدىء. وعندما لم يفتح أحضرت لتر جاز وغمرت القفل فيه وعندما فتحت زيق الباب، وشرخ الكون ودفعت عايدة في القبو وعادت لم تجد المعلم الذي دخل غرفة لا يدخلها إلا عندما يكون في مأزق كبير، وعندما دخلت عليه كان يصب لنفسه كأس نبيذ يصنعه على يديه، ناولها قدحًا: وبعدين يا معلم؟

الولد الأول نشوف له صرفة وبعدين تفرج. نامي، نامي أنت يا ستو.

في هذه الغرفة تم رسم السيناريو الذي سيسير عليه القبط في بناء الكنيسة وبقوة المعلم فهيم والخواجة رزق بائع الذهب وكان رأيه واضحًا: إحنا معانا تصريح صحيح من الرئيس عبد الناصر لكن الحكاية عايزة شوية حذر... نعملها على مراحل خطوة، خطوة، قاعة اجتماعات، أفراح، مذبح، جرس كنيسة.

وعندما نظر إلى الحية الراقدة تنظر إليه في لا مبالاة، تذكر يوم تركها تنهش القصير اللعين الذي حاول أن يستولي على الأرض: وكان لازم أبكي عليه طول إقامة القداس آه. أومال إيه. نظر إلى الأفعى، وأمسكها من رقبتها وأخذ يمسد الشعر النابت فوق رقبتها وجسمها الأملس الناعم وعينيها الزجاجيتين الحادتين، أغمضت الحية عينيها، فمد المعلم يديه في جيب السيالة وأخرج سكينًا رفيعًا حادًّا وجز رقبتها مرة واحدة، وصفي السم في كوب صغير، وتركها تتقافز.

عاد إلى غرفته ونام حتى فرشت الشمس وجهها على الأرض قام ونزل إلى الحديقة وأدار الماكينة، وأخذ ينظفها ويضع فيها الجاز. وقاس الزيت.. والفلاحون

يروون الحوال البحري، كان واثقًا بأنه المنتصر وأن كل شيء سيسير وفق مشيئته: يا ما دقت على الراس طبول، حتى أصبحت هذه الرأس أصلب من الحجر، وهذا الصدر حاوي مكر وأسرار ومكائد لا تنتهي، رغم أن هذا الفخ الذي وقع فيه كان كارثيًا لن يستطيع أن يفلت منه دون تشوهات، الولد ميت، ولكن البنت لم تعد بنتا، ثمرة البرتقال أصابها العطب، الجوهرة انتهكت، كان يريد أن يجعلها سلاحًا حاميًا وكان يرسم على علاقة نسب تزرع الأمان داخله الفترة الباقية من عمره ولكن، السافل يجب أن يتعذب، الشرير يجب أن أرى النار تأكل فيه. وتنهشه وتمزق أحشاءه.

وقرب اشتعال الشمس عاد إلى البيت وحمل سلة بها عيش، وغرف من خلاياه قطفة عسل ودس فيها السم. وذهب بها إلى آخر الأرض. حتى وصل إلى كوخ الأخرس. فوجده نائمًا فنادى: يا شمندي. يا ولد يا شمندي. قام الأخرس فزعًا فأشار له المعلم. نزل الأخرس وهو متعب. أوديك للدكتور يا شمندي؟

أشار بلا، طيب تعال نلعب دور سيجة. أنا تعبان وعايز أتسلي في حاجة. ابتسم الولد "شمندي" وأشار بعلامة النصر... أخذا يلعبان في همة حتى هزم شمندي المعلم. فأخذ يضحك من قلبه. تعال. تعال يا ولد. إنت غلبت المرة دي. ماشي. وسحب الأرغفة والعسل وأكل. وضرب على صدره بعلامة القوة، وعندما تبعثر دم الشمس في الأفق سحب المعلم المنديل المحلاوي ووضعه في السيالة ثم حمل السلة وسار تاركًا الأخرس يدور في الحقول ناظرًا إلى القمر المخنوق وبطنه بدأت تمور... وبدأ يئن أنينًا خافتًا يتعالي شيئًا فشيئًا حتى لم يعد يحتمل فأخذ يجري باحثًا عن عايدة تحت أشجار البرتقال يخوض في الغاب والهيش ويفتش عن أثرها، يعود مرة أخرى يحاول أن يقترب من السراي ثم يعود. إلى البوابة المغلقة، قفز من على السور وجرى علي المشاية، حتى أنهك وعرف بالحدس أنه ميت وعاد مرة أخرى يريد أن يرى عايدة، أن يراها ويموت، قفز على السور يبحث عن صوت. لا شيء إلا أصوات الضفادع وصرير الهوام وعندما لم يعد قادرًا على الاحتمال، جرى

في الحديقة صارخا ولا مجيب سوى الفراغ. يقترب من السراي التي أطفأت أنوارها وبدت معتمة، يجري ويعوى في الفضاء عواء مرعوبًا يهز الكون وصوته يزداد وضوحًا: آيده. موت آيده. شندي موووووووت

وكانت عايدة تسمع صرخاته ونحيبه المؤلم في قلب العتمة، وهي تدور في القبو وقد ضربها الجنون، فأخذت تضرب في الحائط وصوته يرن في أذنها.

آيده... موت آيده. وهي تضرب رأسها في الحائط ويخرج جأرها كصوت عرسة تنبح في الفراغ مت... مت أنا يا شمندي...

وفي الصباحات التالية كانت عايدة تلتصق بالحائط مدهوشة وشعرها الحوشي ونظراتها مفزوعة، ويداها تلتصقان بركبتيها لتحميا بطنها التي تعلو شيئًا شيئًا!

رامة والتنين (٢)

(١)

تناثر الدم في الكون والشمس اختفت خلف الحقول. والفلاحون حملوا الفؤوس وعادوا إلى بيوتهم. جثة شمندي قد بردت وتسللت الحشرات إلى فمه، وبدا جلد جسده هشًّا، خرج المعلم نجيب من السرايا وقد تهيأ وحمل الكوريك وسار تاركًا دميانة تناغي عوض وترفعه إلى السماء. ونزل إلى الحقول وهو يلتفت بحرص حتى وصل إلى مكان قد روي، وأخذ يحفر بالكوريك في صبر وتأن حتى حفر عمق رجل.

ذهب إلى النوالة (مكان يوضع فيها تقاوي البطاطس من عام إلى آخر) وربط الحبل في سرج المهرة عايدة وأخذ يسير به في طرق متعرجة، حتى وصل بها عند الحفرة ففك مقوده وأخذ يدحرجه حتى أسقطه في الحفرة، وداراه بالرمل، وأدار الماكينة في الحوال حتى اختفي كل شيء إلا ذبابة زرقاء بدت تحوم حول الحفرة.

هل برح مخيلته طوال الليالي الفاتنة؟ هل ندم؟ عاد إلى السرايا ودخل غرفة الأفاعي وأشعل الشموع المطفأة ورمي شلتة على السجاد الإيراني، أحضر الكأس والنبيذ وأخذ يشرب بهدوء. اندهش عندما رأى القديس مارجرجس وبيده الحربة يحارب التنين وكأنه لم يره من قبل. ولم ير صلابة القديس، وهو ينظر إلى عينيه القويتين وهى تطارده، وأخذ يزحف تاركًا المكان، دخل غرفته فوجد الست دميانة تأخذ عوض بين أحضانها.

نظر إلى المرأة فوجد وجهها صغيرًا وطيبًا وبريئًا وخائفًا، وجسده الضئيل وحياته التي مرت وهو يضع قناعًا زائفًا ملعونًا غطى على روحه واعتقلها، يجب أن أفعل ما أريد أن أفعله لن يخرج من نسلي مسلم أبدًا، أخذ يبحث في السندرة حتى وجد حبلًا من الكتان، أخذ يلفه بين يديه ثم غمسه في الزيت وصعد مع شرائح الضوء الخفيف درج السلم المؤدي إلى القبو الذي ترقد فيه عايدة حتى انتهى إلى السطح، اصطدم بالبخار الرطب الذي يغلف الكون، أخرج المعلم المفاتيح الصدئة وأخذ يفك القفل في هدوء وبدنه يرتعش وصوت تنفسه يتعالي.

توقف وفكر أن يعود. قدمه ثبتت في الأرض، وهو يحث نفسه على الدخول، لن تقاوم. سيلتف الحبل حول رقبتها لمدة ثوانٍ، وتموت ويلقي الجيفة في المستنقع، أزاح الباب الذي زيق تزييقًا حادًّا مزق روحه سار يتحسس البلاط، فوجد عايدة تنظر إلى كوة صغيرة نحو السماء، وقد ضمر جسدها، وعيناها أخذتا تتسعان اتساعًا غريبًا وكأنها مخبولة، اقترب منها كانت مضيئة حتى كادت أن تشع تمامًا وهي تتحول أمام ناظريه إلى كائن آخر تماما "فصرخ وجري مسرعًا وكأن غولاً يتبعه رافعًا حربة الموت ويطلقها في إثره".

كان يسمع صوت الحربة تتبعه حتى سقط يتدحرج من على السلم، وصل للدور الأرضي وقد خمد غائبا عن الوعي ورأى نفسه يسير في الملكوت، ويرى يسوع ابن الرب بجواره الساروفين وهو ينادي بأعلى صوته -ابن الرب الذي أشاح بوجهه حتى اختفي- نظر حواليه، خرائب تحيط به ونبت في الأرض شوك، قنفذ، عرس ابن آوى بجسمه الطري يقف في مواجهته، ضفادع وحشية تتقافز وتطلق صوتًا مزعجًا يكاد يصيبه والأفعى

تقف وقد نبتت لها رأس سوداء. يحيطون به ويزحفون نحوه وهو واقف بلا حراك ينظر إلى البعيد ولا يري سوى الوحشة دون معين أو زاد وحيد في هذا الكون، استسلم مادا ذراعه إلى الأفعى التي غرست مخالبها في ذراعه، والضفادع وابن آوي والحشرات السامة يبركون فوقه.

(٢)

استيقظت الست دميانة على صوت صراخه المؤلم. جرت، وجدته مكومًا على درج السلم وقد بال على نفسه حاولت أن تحمله لم تستطع فجلست تبكي إلى جواره، وتذكرت رحلة العمر الطويلة التي عاشت فيه معه منذ أن تزوجته قبل الحرب الكبرى بأربع سنوات وهي معه في كفاح، تقطير متواصل، كفاح بلا آخر، لم تتذكر يومًا أن كان هناك ترفيه أو لهو، وكأننا مكتوب علينا أن نعمل ليعيش الآخر والآخر يعمل ليعيش آخر وهكذا دواليك وكأنني سلسلة من الأضاحي لم يتغير شيء منذ دخلت هذا المكان ونسير على خط مستقيم وكأننا آلات، لمن

نترك كل هذا المال، كل هذه الخصوبة التي لا ينتفع بها أحد. مرارة لم تنقطع منذ أزالت الرحم، موت الابن، الزوج، مأساة عايدة.

تنادي حتى أتت عايدة، حملت جسدها وأراحته على السرير ثم عادت وأدارت قرص التليفون عدة مرات حتى حضر الدكتور عادل ابن عمتها، وعندما دخل الغرفة التي بدت عطنة ورائحتها كتمت على روحه خرج مسرعًا.

لم يشأ أن يقول لهم: إن الضربة في الرأس كانت قوية جدًّا ولن ينطق أو يسير مرة أخرى: أبدًا أملنا في الرب كبير.

قام وفتح الشباك: الضوء صحيّ وكلنا محتاجين الشمس

قامت عايدة ونزعت الستائر الكابية ودفعت الشبابيك فتسلل قرص الشمس.

كان على "دميانة" أن تحمل هموم المنزل المقبل على التفسخ، أخذت أولا تشيع بين الفلاحين غياب شمندي المتكرر، وأرسلت تسأل عند أقرباء من بعيد وأصدقاء: الواد قاطع فينا

- أنت عملت اللي عليكِ كده، واسم الله المعلم كان يعامله مثل ولده، و"أتريس" كلها تشهد على ذلك.
- الغيبة طولت ولا حس ولا خبر.
- الرك على الأصل، ابعثي والنبي شوية مش يا ست دميانة
- عينيا، بص، فوت على بيت الواد سعد ابن الست لويزة مِرات المعلم وهبة وقله المعلم عايزك
- حاضر من عينيا يا أم سامي .

سعد ولد غلبان مثل البنت الحيية، خجول منذ أتى إلى المعلم ليتوسط له للعمل بعد أن تخرج في دبلوم التجارة وقد توسط له المعلم لكي يشتغل في البريد ولكن ماذا تقول له؟

تركت الفلاحين في الحقل وذهبت إلى السرايا، وجدت المعلم ينظر إلى قرص الشمس وقد بال على نفسه: تاني يا معلم، رفعته من على السرير بمساعدة عايدة ونظفته بالماء والصابون وغيرت ملاءة السرير وأراحته على السرير، وجلست بجواره على السرير بعد أن غمرته بالملاءة.

طوال عمرنا ظللنا نكد بحثا عن الأمان وخوف من الآتي، خوف من الجار خوف من الله. معلم هل خُلقنا لكي نخاف؟ لكي نعيش في حالة رعب نكبح خلالها رغباتنا وأشواقنا، هل ما عشنا من أجله وهم، شرانق وخنادق وممرات سفلية كان وهمًا، وهل نحن قادرون الآن فعلاً على التغيير وصناعة مصيرنا بأيدينا أم أن العمر فات وخرجنا من المباراة خاسرين. نحن خاسرون، هذا الاعتراف الوحيد هو الذي يمثل لنا الشرف الوحيد حتى لو كان بيننا وأنفسنا.

(٣)

عايدة منزوية في غرفتها تنظر إلى الفراغات، وتعيش مع شمندي في أحلام لا تنتهي، ترى نفسها بجوار شمندي والزهور والرياحين من كل صنف تحيط بهم وبرك الماء العذب تترقرق أنهارًا وجداولَ صغيرة، وقد غمر الكون ضوء القمر ليضوي الزروع الريانة وتسمع ضحكة شمندي غريبة، لكنها جميلة ثم يحملها على ذراعه وهي تنظر إليه في فرح وعشق أبدي ولا يقطع صوت نهر

الفرح إلا صوت في الخارج. تزدرد لقيمات لكي ينمو ابن شمندي.

الجدة مستغرقة في التفكير في عزلة، والمعلم ينام قبالتها على السرير حتى دخل سعد وقبل يديها، انفطر وتراجع عندما رأى الحية: تعال يا سعد دي ميتة، اقعد. ناولته كأس نبيذ وأخذت تروي له كيف تسلل الثعلب اللعين شمندي واغتصب الطاهرة وفر هاربًا عندما حاول المعلم أن يقبض عليه، وكاد أن يقتل المعلم وعايدة اليتيمة أعصابها انهارت وتصرخ طوال الليل وهياجها لا ينتهي، وسعد ينصت وقد تهدج صوتها، وهي تلون في صوتها وتنشج في بطء حتى تحول صوتها إلى عويل فبكى سعد، ولم يخرج إلا بعد أن اتفق على الفرح.

وقفت عايدة أمام القس ورددت قسم الزواج وأنها راضية تمامًا وإلى الأبد، تردد وهي تقاوم الانهيار، وعندما عادت من الكنيسة ودخلت السرايا مع عريسها أخرجت الجدة المعازيم بسرعة وعذرها أن المعلم في غاية التعب، ويكره الضجيج وعندما خرجوا أغلقت الباب وأطفأت الأنوار وتركته في البهو حائرًا.

وفي الصباحات التالية كان يدور في السرايا خجلاً يحس أنه غريب وأنه يمثل دورًا ليس له، سرعان ما خرج من القصر، كان تعسًا وهو يدور في القصر ورائحة عرقه قد فاحت حتى عرفت الجدة فدخلت عليها الغرفة وكبست عليها:

- واسم الله إن لم تتركيه يدخل عليكِ لأكون مخلّصة عليك أنتِ وهو مرة واحدة.

وحددت مكان الطفل في بطنها، ولم تتركها إلا بعد أن امتثلت وقد غمرها العرق وتناثر شعرها على عينيها والحيرة تسيطر عليها حتى دخل عليها، وعيناها تنظران إلى البعيد عبر الشباك.

جلس جوارها وأخذ يتكلم في هدوء، وهي غير منصتة، عن مشيئة الرب وكيف يجب أن يمتثل العبد لأوامره وهي تنظر إلى السُحب التي تحولت إلى اللون القاتم في شكل تنانين تملأ السماء وقد توجهت إليها وبدت أنيابها الحادة مخيفة، تقترب وتكاد تتدخل من شبابيك وتنقض عليها فصرخت وراحت في غيبوبة، وقفز سعد خارج الغرفة.

في الأيام التالية كان الزمن يمر ببطء، يتقاطر في روحها بسأم ثقيل فوق روحها حتى أتى الخريف، وسرى في الكون هواء رقيق وصفا الجو، وانزلق القمر في ساعة صحو داخل رحمها فغمرها العرق وانزلق منها، الوليد.

عيناه سوداوان، وملامح شمندي مطبوعة على وجه الطفل، وسعد سعيد بالطفل ويناغيه ويظل يُدلّلهُ طوال النهار وفي يوم التعميد أتت الست دميانة وقالت لعايدة: حضري نفسك بكرة التعميد.

- حاضر

وتذكرت شمندي ونزلت من على الفراش والليل يفترش الكون بغبار أبيض رقيق.

- ماذا أفعل؟

سارت في الحقول تغوص في الحشائش حتى وصلت إلى شجرة المانجو واستندت عليها وسمعت صهيل الفرس يرج الكون وعينها تجوس في المكان باحثة عن شمندي، سارت على الدرب، واجتازت المنحنيات ثم وقفت أمام الغابة وبدا بدنها الرقيق يرتعش وقدمها تغوص في ماء الغابة الراكد، أزاحت الريم الراقد الذي

يغطي على سطح الماء، والغاب يصطدم برقبتها ويجرحها فتتسلخ قدماها من الغاب النابت حتى انتهت إلى الصحراء، نظرت حولها خلعت بلوزتها وفرشتها ونامت عارية، ثديها وبدنها يضويان، ناظرة إلى بركة الماء المعلقة في السماء حتى غفت، ورأت نفسها تقف أمام الكنيسة وصوت يناديها باسمها، نظرت فوجدت شمندي وكأنه يوم القتل، وقد ظهر صوته جلياً، عايدة، ابني يا عايدة، يده وصوته المجروح يكادان يزلزلانها والجدة تجرّ منها الوليد والشمامسة والقسس يقفون لكي يتم تعميد الوليد الذي يصرخ ويكاد يتمزق بينها وبين الجدة، صرخت وقامت تنظر إلى الفراغ، كان القمر قد غاب، خطت نحو السرايا وفتحت غرفتها وحملت الوليد بين ذراعيها وخرجت من السرايا تجاه البوابة...

فتحتها...

سارت!

القسم الثاني

جسد في ظل

٢٣/ ١٢/ ٢٠١٠

الشمسُ يفحُّ وهجَهَا اليوميَّ، والرجلُ المعطوبُ يرقدُ وقدْ ضربه الجربُ فبدا جسدُه مهترئًا، وأظافرُه تبحثُ عن البثور، لينزع قشورَها بعصبيةٍ مفرطةٍ، يصرخُ: خراب.

الجوُّ خانقٌ، ريقه جفَّ تمامًا، عينه الذئبية تبحثُ عن ماءٍ لم يجدْ سوى ظلٍ يكتمُ على روحه.

ساعتها أحسَّ أنه تاه في صحراءَ، ثم وجد نفسَه يتعثر فيسقطُ من فوق الجبل، يسقط بقوةٍ مدهشةٍ، ويحسُّ خلالها جسدَه ثقيلاً كالرمل يسقط بقوةٍ، لتنفجر البثورُ تفرقعُ مثل تفجر البالون، وعندما انتهى إلى القاع كان يعومُ في بركةٍ من القيح الذى ازداد حتى غطى جسمه، زحف على صدره، دخل فمه، فلم يعد قادرًا على التنفس.

انتفضَ من الكابوس إلى النهار المرِّ، ينظرُ إلى البيتِ الذى دفع دمَ قلبهِ فيه، وعذابه في الغربة أصبح الآن

سجنًا يضيقُ عليه، خلاء. صوتُ طلمبةٍ يمزعُ الفراغ، ذباب يحتل المكان، خرق قديمة: يا بت.. اِنت يا بت
فتح بابَ الوسط الذى يفصلُ الفرنَ والحظيرةَ عن البيتِ، وخرجتْ منه بنتٌ صغيرة منكوشة الشعر، مدورة الوجه، بيضاء، تكاثرَ الذبابُ على وجهها: القلة... القلة يا بت.
البنتُ أحضرتْ له الإبريقَ الذى يستخدمُ في الحمام. لم يأبه، اندفعَ في شربِ الماءِ حتى انتهى منه، ثم قذفَ البنتَ بقوةٍ صارخًا: يا كلاب... عايزين تموتونى.
شج رأس البنت التي أخذت تصرخ، وتتمرغ في التراب وهو يجأر ويسرسع: يا كفرة.. أنا هاموت نفسى.. أكلتونى لحما ورميتونى عظما يا كلاب!
اندفعتِ الأمُّ تجاهَ البنتِ، بينما أخذ يتزحزح ملتصقًا بالحائط. سحبت البنتَ وقد أحمرَّ وجهُها حتى أصبحَ كتلةً من الدم الخالص، ذهبتْ إلى حوض الطلمبة، وضعتْ رأسَ البنتِ في الحوض، وأمسكت يد الطلمبة، أخذتْ تدقُّ في قوةٍ والماء اندفع فوق رأس البنت التي بدأت تشهق..

المرأة التي تضعُ في عينيها كحلاً يزيدهما حسنًا، و يزيد سوادهما ألقًا، ترفع ثدييها بمشدٍّ مخرم، فيبرز ثدياها، وتلبس قميصَ نوم نايلون، وجلبابا أبيض، فتبرز السيقان والجسد القادر. أخذت تدعك حتى بدا الجرح الذى شج، ثم رفعتها وقربتها من الفرن وكبشت رماد الفرن وكبست وما زال الدم يسرى!

تركت البنتَ بجوار حوض الطلمبة، وذهبت إلى الرجل الذي سحب القميص الدبلان، وغطى به نفسه. اقتربت منه، أمسكته من ياقة جلبابه، ورفعته في مواجهتها وقالت له: مش حرام عليك؟

فبدا ينشج نشيجا خافتا سرعان ما تعالى.

دغل

الشمس عمودية، ويونيو يكنس البشر من الشوارع، بلد عارية من الأشجار، والرجل الذي قارب الستين وبه بعض فتوة وحياة، هجم عليه ذباب ورطوبة ؛فقام مختنقا من كمية الهواء الفاسد، ينظر إلى محيط الغرفة الذي يضيق عليه وقشر البياض المتآكل الذي يشكل كائنات موحشة تجلب الفزع، وعدم الرغبة في النوم. مسح عرقا نبت على رقبته ناظرا إلى امرأته المريضة بجسدها الضئيل، والذي يغوص في لحم المرتبة، تغط في نوم عميق بلا آخر (لو يكون آخر نفس) تزحزح على مقعدته واقترب منها وعري ساقيها وصعد بيديه إلى وركها، لم يجد سوى عظام تحت يديه. كان يلبس جلبابا، على اللحم بلا سروال نفض يديه وأخذ يدعك عينيه اللتين يغطيهما حاجبان ثقيلان ورمى الطاقية على رأسه وخرج من الغرفة إلى وسط الدار، حيث تنمو طيور البيت وكلب صغير يتمسح به قذفه بقدمه فأطلق الكلب صراخًا

متقطعًا، وسرعان ما لبد في ركن البيت، سحب عصا قصيرة ودخل الشونة وحل مقود الحمارة ورمى شوالا على ظهرها بدل البردعة وجرها إلى الخارج وأغلق الباب على وليدها الذي ينهق في سرسعات متقاطعة. الحمارة حرنت ورفعت رقبتها إلى السماء وأخذت تنهق بقوة والعصا تنزل على ظهرها في عنف فأخذت تجري حتى كاد يسقط من على الحمارة ولولا خفة وزنه وقدرته المحنكة على لف رجليه على بطنها مما مكنه منها ومن حفظ توازنه، لكان يئن زاحفًا على بطنه أو مات فعلا، أخذت تسير في بطء وهو يهتز اهتزازات خفيفة ورجله تضرب في أثدائها المليئة باللبن. الرجل الذي بلا أولاد ويرعى أمه التي وصل سنها فوق التسعين وتتبول على نفسها ورائحتها العطنة تملأ الغرفة.

هذا الرجل الذي أثارته امرأة جاره اللحيمة وهي تغسل الأواني على حوض الطلمبة، وساقها عارية وثديها ساقط من فتحة الجلباب، فبدأ يلهث ككلب، ولما دخل الليل اقترب من زوجته ونزع عنها السروال، ورقد فوقها فأخذت تئن وتطلق مواء ذبيحة، خاف أن تموت فقام

وأدار ظهره إليها وأخذ يتخيل امرأة جاره، وهو يضاجعها والسرير يهتز دفعته زوجته: أيه فيه إيه؟ اعتدل على ظهره. أبدًا دا ضرسي بيوجعني بس.

نام مقهورا. وهو يبول في الشونة اقترب من الحمارة فأخذت تضرب برجليها في الأرض فخاف. أشجار التوت تتابع حتى وصل إلى رأس الغيط وعضوه قد انتصب وصدره ضاق ومرارة يحسها تحت لسانه. نزل من على الحمارة التي باعدت ما بين ساقيها وتدفق منها ماء أصفر قاتم. توقف. أشجار الموز متشابكة وهو يتأمل فرجها الذي بدا شرائح حمراء من القطيفة وعندما انتهت أفاق وسحبها وسط ظلال متهدلة وقاتمة... نظر حواليه. لم يجد أحدا .خلع المقود وزنق الحمارة بين شجرتين وكتفها من رجليها الخلفيتين والأماميتين والحمارة التي تعافر ويضيق عليها المقود. نظر إلى عينيها وخاف من شعاع أصفر يتدفق من عينيها ويسحب منه الحياة. الرجل رفع القميص ووضعه في فمه وبيديه فتح فرجها وأدخل عضوه وأخذ يهتز والحمارة استسلمت وأخذت تجتر وتمضغ هواء حتى لانت، نزل من على الحمارة وقد خلا

وجهه من علامات الحياة تماما وتراخت أعصابه وجلس على الأرض، والحمارة ينزل منها سرسوب من اللبن يغمر التراب.

العاهرة الصغيرة

كان شعرها متناثرا على عينيها التي بدت شديدة التوهج، وتوارى السواد ليعلن الأبيضُ التحديَ.. اليوم منتصف يناير، والشمس تختفي خلف غيوم كثيفة.. البنت التي أكملت عامها السادس عشر، تلبس بلوزة بيضاء، منقوش عليها أشجار صغيرة سوداء ووجهها الأبيض المدور يبدو فاتنا كانت ترتدي (جيب جنز) ممزق من الأيادي الكثيرة التي نهشتها ؛فبدت شرائح اللحم المغوي إلى أن فتح فرجة بين الجموع ودخل ووقف في مواجهتها، رجل طويل وجهه أصفر رأسه مدورة كثعبان ينظر في مرارة وحقد يوزع نظراته بينها وبين الجموع :

- أهيه الفاجرة بنت الكلب اللي جاية تبوظ أولادنا.

. لا.. عليا الطلاق ما يحصل أبدا طول ما أنا موجود. هو مفيش رجالة في البلد

. إيه رأيكم أنا بقول ندلق عليها مية نار..

لم يرد أحد ثم أخرج مطواة وفتحها في قوة فلمعت في ضوء الشمس.. أنت عارفة أنا مين يا بت؟ لم ترد. ارتعشت شفتاها فبدت فاتنة... طال الصمت قامت وأزاحت الواقفين وسارت.

حرائق

(١)

البنت عايدة بنت رزق لما نبت نهدها وبقى زي الرمانة، هاجت. عايدة بنت المعلم رزق شنودة بائع العطور في خان الخليلي الذي أخذ شقة ثلاث غرف وصالة واسعة ومطبخ وحمام في حدائق القبة ومن سنتين وقع عليه رف متهالك ومات.

كان رجلاً شحيحًا يموت على التعريفة ويلبس (نضارة كعب كباية مشبرة وإطارها عتيق من أيام سيدنا كحكوح. ترك الصعيد ونزل القاهرة ما بين ٥٣، ٥٥ مش فاكر؟ واستقر عند جوز أخته نادية وقيل إن هناك أسبابًا كثيرة لتركه الصعيد وهو لا ينفي أو يؤكد فهو رجل كتوم رغم أن الموضوع لا يوجد فيه سر، والسبب الوحيد هو شح الرزق وضيق الحال ورغبته القوية في تحسين أحواله، وكان أول عمل له في قهوة في السيدة زينب يظل طول النهار يعمل حتى تعرف على بائع عطور في الحسين،

وعندما رأي فيه خفة ونشاطا وذكاءً، طلب منه أن يعمل معه، وبالفعل استطاع بنشاطه وهمته وصبر الزوجة الأولي أن يدخر مبلغًا محترمًا يستطيع أن يفتح به محل، ولم يخجل من صاحب محل العطور، بل قالها بهدوء وقوة في نفس الوقت: أنا خلاص مش جاي بعد النهارده...

- ليه؟

قال بتصميم: هو أنا هشتغل معاك للأبد صبي.. أنا بكره هيكون لي محلي الخاص.

ولما شيخ الحارة وجد له شقة هايلة في شبرا رفض بتاتًا، مع أنها جوار بيت جوز أخته.

- ألبتة.

- شنودة الشقة قريبة من الجماعة... دي لقطة.

- لا.

وانزوى بشيخ الحارة: خصوصًا تكون بعيدة عن شبرا ولما الست زوجته ماتت في منتصف السبعينيات، ولم تنجب وهو قارب على منتصف الأربعين والدنيا تغيرت والحالة تحسنت وفى المحفظة ثروة استطاع بها أن

يتجوز "شكرية" بنت الأسطى سمعان الخياط البريمو وكان دكانه في الخليفة.
المعلم شنودة صياد، البنت مراته كانت فتنة وهو كان عارف ولذلك بدا يضيق عليها ويغلق عليها الشقة بالمفتاح.
- عايز أعرف ليه الرغبة في الخروج للشارع يا غالية يا وهيبة، متنسيش الخارج كله شرور، يا طيبة اعتبريها فرصة عشان تتأملي في حياة ابن الرب. الزاهد
لدية صلابة خنزير يريد عمل شيء، ينفذه زي الكتاب ما بيقول.. يذهب بإصرار كل أحد للكنيسة، ويده تقبض على يد عايدة، والزوجة المخلصة بلا أعذار حتي لو كانوا مرضي فبدوا أسرة متماسكة مثالية.
- معنديش انحراف، الشافي هو الله
ولأن عايدة وحيدة، شربها صناعة العطور بالمعلقة واحدة واحدة.. حتى أصبحت (بيرفكس) وبعد أن مات مسكت المحل بيد من حديد.

(٢)

الست وهيبة جت من القداس بعد أن قبلت يد أبونا، وطفرت سيلا من الدموع، ورسمت إشارة الصليب، وشكرت المسيح في الأعالي ثم قامت وصدرها يموج بالغضب، وفتحت الدولاب ونزعت هلاهيله ورمتها على الأرض وسحبت الصندوق الفضي المرسوم عليه الصليب وأيقونة العذراء، وهي تحمل ابن الرب، فتحت الصندوق وتفحصت أشياءه ونظرت حواليها، لمبة، سهراية بجوار السرير الأرضي المرتب بعناية والكتاب المقدس موضوع على رف، حذاء مرتق، سجادة اشتراها عام خمسين. أعادت ترتيب الأشياء بعد أن نزعت عدة أوراق مالية من فئة المائة جنيه، ووضعتهم في صدرها، ثم قامت ووضعت الهلاهيل في السندرة مع الأحذية المرتقة من ككل جانب، المفكات، المقصات، علب البوية، مواسير مياه، زجاجات فارغة، ملابس ممزقة، ساعة يد واقفة.

الست وهيبه فتحت الشبابيك، ونفضت الغبار المتراكم ونظرت إلى المرآة، وأطلت فيها ووضعت كريم الأساس

وعزمت الجيران على الشاي وأرتهم العفش الجديد الذى اشترته من بيع المصنوعات وقمصان النوم والأحذية والشربات والفساتين من شارع فؤاد...
في عز الليل ريح هاجت وصفقت الأبواب والشبابيك بعنف، قامت عايدة مفزوعة تتحسس الجدران وفتحت غرفتها، ووقفت في الصالة وأنصتت لصوت الريح.. تمهلت حتى اعتادت عيناها الظلمة وخطت خطوات إلى أن أصبحت أمام باب غرفة أمها فتحت "فرجة"، وأطلت داخل غرفة أمها لترى الأهوال والشياطين الذى تلبستها وأخذت تنهش فيها بقسوة، تكومت على الأرض حتى استعادت وعيها ؛فقامت تجر ذاتها حتى وصلت إلى غرفتها، وهناك أشعلت شمعة، نزعت ملابسها كاملة ووقفت أمام المرآة تتحسس الثدي المدور، الردفين، الساقين اللتين تضويان في وهج الغرفة وارتمت على السرير ووضعت مخدة لينة بين ساقيها، وأخذت تفرك في عنف.

(٣)

وقفت أمام المرآة تنظر إلى شعرها الأسود الخشن، ووجهها الميال للسمرة، وعينيها السوداوين الصغيرتين، والزغب الصغير النامي فوق شفتيها الرفيعتين الحادتين وأنفها الدقيق... كان وجهها بريئًا وطيبًا، دخلت الحمام، ونظفت نفسها وفي اليوم التالي دخلت غرفة أمها وأحست باحتياجها إلى طوفان من الحنان تجاه أمها.

الغرفة لها رائحة مميزة. فتحت درج التسريحة وأخرجت علبة التواليت، ومسحت وجهها بالبودرة وشفتيها بالروج، وتعطرت بعطر غالٍ تعرف قيمته فهو من العطور التي تميز المحل، وأخذت تمشط شعرها بعناية ثم دخلت غرفتها، وسحبت بنطلونا جينز وبلوزة بيضاء وارتدتها على العري فظهر ثديها واضحًا والحلمة مغروسة في البلوزة...

نزلت من البيت واجتازت الحارة، وركبت الأتوبيس (أخرجت حافظة النقود، وأعطت المحصل عشرة جنيهات وأخذت الباقي وغرست عينيها في عينه)

نزلت ميدان المطرية، وأخذت تتجول في الشوارع قرب المترو ثم ركبت أتوبيس (٤١) ونزلت ميدان التحرير وسارت على الكورنيش وهي تنظر إلى الموج الدافئ الذي يلمع تحت سطوة الإضاءة.. لم تستطع أن تؤلف علاقة.

قالت: آخر حاجة أدخل جاردن سيتي، الشباب هناك بيشغي، سارت في شارع القصر العيني ودخلت محلا للفطائر. أكلت فطيرة بالزبد ونظرت إلى المرآة، كان شعرها الخشن نافرا فبدا مهوشا بشكل يدعو للإزعاج. عادت إلى الحمام وبلت يديها من الصنبور، ومسحت به شعرها وخرجت من المحل إلى الشارع. اجتازت شارع القصر العينى. سارت في قلب الظلام تتجول في شوارع جاردن سيتي المعتمة، لا أحد. حتى كلَّت وخبت لمعة عينيها؛ فعادت مرة أخرى وركبت تاكسيا وارتمت على الكرسي ناظرة إلى السقف في لامبالاة. ثم نزلت وصعدت الدرج وفتحت الباب ودخلت غرفتها وأطفأت النور وشدت اللحاف وأخذت تشخر في العتمة.

عواء

دخل بطريقة غير شرعية إلى ألمانيا، ومزق أوراق الهوية عندما دخل إلى شقة خاله د. عدلي مكرم الصيدلي المهاجر من أوائل السبعينيات، وقد تزوج من فتاة ألمانية ولم ينجب سوي مادلين التي تزوجت من شاب ألماني، وعاشت معه في مقاطعة بافاريا ولم ترضخ لتوسلات أبويها لتعيش معهم، وبررت ذلك بكون زوجها شاعراً ويحب أن يكون مستقلا ويعشق المقاطعة المتميزة.

الخال كان سعيداً بوجوده فهو ريحة من مصر، وونسه يحكي معه عن البلد الذي بتر منه، وقذف في بلد كل حال فيه غريب، كما أنه ولد نبيه وشاطر وساعد الخال في الصيدلية، وكلما وجد فرصة عمل خارج الصيدلية قام بأدائه ما دام سيكون في أمان بعيدا عن الشرطة، وظل طوال فترة وجوده لا يسهر في بار، ولا يدخل السينما ويقضي أوقاتًا طيبة في الكنيسة حتى سمي في محيط المكان بالعذراء، وعاش هناك مسالمًا وراضيًا إلى أن

حـدثت تفجيـرات سـبتمبر وتـم القـبض عليـه وترحيلـه سـاعتها بكـي الخـال بكـاء مـراً، وأرسـل لـه المـال بالسحتوت.

وعنـدما عـاد إلـى القريـة، فـي الصـعيد وبـالفلوس الـذي وفرها، بنى بيتًا وتم تشطيبه كيفما أراد، لا يعمل ويقضي الوقت في البحث عن عروسة تخفف من حنقه من الفراغ الـذي يعـاني منـه، فـلا أصـدقاء لديـه لكـي يسـامرهم، ولا توجـد سـينما أو مسـرح أو مقـاهٍ، فقـط تـذهب إلـى العمـل وتنام إلى اليوم التالي الذي تذهب فيه إلى العمل. روتين يومي مستمر.

حـرارة الجـو مريعـة جعلـت المكـان خانقًـا. خـرج ووقـف على باب البيت وهـو شبه يـائس مـن الشـمس التي تصـب جحيمهـا عليـه، فـتح أزرار القمـيص، وبـدا صـدره فـي مواجهـة الفـراغ، وأزاح غطـاء الزيـر فمـلأ الكـوز الصـفيح المربـوط فـي الغطـاء وأخـذ يصـب علـى رأسـه، والمـاء ينسـاب ويتكـوم تحـت قدمـه، الملابـس التصـقت بجسـمه فأحس بالعري وتذكر زميلاً له في المدينة الجامعية عندما رأى اهتـزاز ثديـه تحـت الملابـس قـال لـه: أنـت مخنـث؟

خاصة أنه وسيم ويترك شعره مسترسلاً إلى الخلف فيبدو شبيهًا بالبنات وعندما رد بهدوء: لا، أنا مش مخنث. سحب يده وتفحصه. وقال دي أصابع أجمل من أصابع فاتن حمامة. هجم عليه بقوة وأخذ يضرب جسمه في الحائط ويصرخ صراخًا متواصلاً قبيحًا، حتى أن الولد بكي من صراخه وعوائه المؤلم وليس من الضرب وتكوم على الأرض. ساعتها سكن وابتسم وترك المكان.

أغلق القميص وهو يحس بوخز العيون التي وراء الشبابيك وفوق الأسطح عيون لا يراها، تتجمع وتلتصق وتتوجه نحوه تتفحصه بلا إنسانية. عيون مدمرة تسحقه وتجعله يحس أن الكون غريب وقاسٍ إلى أبعد مدى. دخل غرفته وهو يرى أنه بدأ يفقد الإيمان. أخرج الكتاب المقدس، وأخذ يقلب أوراقه ثم جمع ملابسه ووضعها في حقيبة دون أن يعير البيت أو أسرته أدنى التفاتة، تجول في شوارع القاهرة وتنقل في كثير من الأعمال حتى انتهى إلى إدارة سوبر ماركت الأستاذ صبحي أندراوس ولأنه أمين، رقيق يبدو كملاك فقد سلمه مفتاح

شـقة يملكهـا فـي أرض اللـواء وزوجـه الابنـة الأخيـرة عنده... نادية.

صبحي صاحب سوبر ماركت المحبة بحدائق القبة الذي تجاوز السبعين ولم يعد قادرًا على إدارة المحل وليس له أبناء ذكور ترك إدارة المحل وكل عام يقوم بجرده. ويظل طوال النهار في المحل مثل النحلة يرص البضاعة أمام المحل ينظف الأرضيات، بريمو يقوم بحصر البضاعة المنتهية صلاحيتها ويتصل بتاجر الجملة لكي يأتي له بالبضاعة الناقصة، وعندما ينتهي من العمل آخر الليل يكون في غاية الإنهاك تمامًا، تقوم نادية بوضع الأكل له والعودة إلى النوم مرة أخرى. دخل على زوجته التي كانت عارية تمامًا، وكان كلما قال لها: قميص نوم يا نادية. ترد أنا بارتاح في عريي كده ملس على وركها واقترب بشفته من بطنها فتنبه على كدمات زرقاء على بطنها، تحت السرة يتجول بعينيه ليرى بيديه كدمة تشبه حفر أسنان، بدا مرعوبًا ومروعًا فخرج من غرف النوم إلى الحمام، إلى الصالة، نزع ورقة النتيجة وجد في هامشها مكتوب "لأنها إرادة الرب".

استكان لأنه مؤمن ويجب أن يكون راضيًا. حتى عن الشرور التي لا تحتمل. لم يفعل شيئًا فقط نام جوارها على السرير يفكر في مصير الإنسان، وهل يملكه الإنسان بالفعل أم أنها إرادة الرب، وما على المؤمن الحق إلا الامتثال؟ وانتهى إلى أمرين: إما أن يعذب هذا الجسد الشرير المدنس بالخطيئة، ليطهره ويستمر في الحياة أو يترك كل شيء ويعود مرة أخرى إلى البلد.

كان الأمران في غاية الخطورة فهو لا يستطع أن يؤذي نملة، فما بالك بروح إنسانية، أما البلد فكارثة تماثل الموت. لم يصل لحل حتى انتشر النور في السماء فغادر البيت إلى المحل وظل هناك يقلب في وجوه البشر الذين يعرفهم ولم يصل إلى شيء. كان يريد أن يقوم بشيء فعلا لكن لم يكن من الداخل قادرا على شيء، أغلق المحل ووضع لافتة (مغلق للاحتفال بعيد الفصح) وفي الصباح ذهب مع الأسرة إلى قرية الأستاذ صبحي في أتوبيس وخرجوا إلى البحر.

يلعبون هناك بالكرة في فريقين، لندا بنت المعلم وزوجها عاطف، وإيفون وزوجها رامي، ومريم فكري وعادل

جرجس. المباراة كانت جميلة وحامية، وفي وسط هذا انتشل نفسه من المباراة ووقف في مواجهة البحر يأخذ نفسه بعمق. يده مفرودة على آخرها وكأنه مطلوب، يطلق صراخا اقرب إلى العواء. صراخ تنبه له المراكبي والمزارع وشماس يركب حماره على الجسر والأسماك في البحر والحمير والغاب وورد النيل والنمل والجمال والكلاب، أما أسرة المعلم صبحي فيلعبون الكرة في غاية النشوة والهياج دون أن يسمعوا أي صوت أصدره عياد سمعان وهبة.

اللآئن

ديكة تؤذن، نثار أبيض، يبصق، خلاء. سيل أبيض منثور يندفع في الشوارع وفوق الأشجار، والرجل الذي تجاوز الثمانين بأعوام قليلة سحب الإبريق المصنوع من الفخار وتوضأ واتجه إلى القبلة في تبتل واستغراق وعندما انتهى نظر وتذكر أنه لم يصلِّ بعد. وتساءل: وكأني ما ربيت ولا تعبت ولا تركت شيئًا أبدا

الرجل ممصوص الوجه سقط، وهو يمر على غرف الأولاد وأنصت لشخير، بكاء طفل، هسيس، لا شيء ألبتة، استند على عصاه وركب الحمارة السوداء ساحبًا بقرتين فاقع لونهما وسار في اتجاه الحقل بعد أن أغلق الباب وفي طريقه نثر حَباً من المقطف الموضوع أمام الباب للبط، كانت قطعة حمراء تخرج من رحم الكون وقليل من الدفء وعصافير تزقزق وتلتقط الحَب وفضاء رحيب صامت حتى وصل إلى رأس الغيط....

ترك الحمارة، وأشعل سيجارة ثم أخذ يعلق المحراث، وعندما انتهى ضرب بالفرقلة في الهواء ؛فاندفعت البقرتان، وسن المحراث يشقّ الأرض وحَب البطاطس يبصق في فرح خالص، وهو يهز المحراث حتى يغوص سن المحراث في لحم الأرض، وعندما رفع قامته في مواجهة الشمس العاتية رأى كائنًا غريبًا يضرب بجناحيه في قوة ويظلل عليه – هل فزع؟ وقد غطّى على مساحة كبيرة من الكون وبانت مخالبه قوية ومنقاره معلق بالسماء... أخذ ينظر إليه حتى لم يعد يرى شيئًا ألبتة إلى أن سقط عليه وانتزعه من مكمنه، وسار عائدًا يضرب بجناحيه في الكون تاركًا رجلاً جف عوده، محروقًا بشمس قادرة وعيونه متقدة تنظر في اتجاه واحد وقدم من العظام مغروسة في أديم الأرض في قوة وصلابة وبقر أصفر فاقع لونه يمخر في الفراغ!

عجوز

تعريشة عنب سقطت. أحواض شتلات الطماطم والكرنب والبصل هرستها الخيول. الرجل العجوز المحنيّ يلتقط أنفاسه وهو يجري في محيط الأرض، حتى وصل إلى رأس الغيط والعرق الغزير خطوط على وجهه المحروق بصهد الشمس الحارقة. يلم عناقيد العنب المفروط والمهروس وكأن حربًا تجري فوق هذا المكان.

العجوز عيناه خرزتان صغيرتان ويقاوم في عناد، وإن كانت هناك دموع متجمدة في عينيه، يلتقط عصاه وقلبه الواهن يكاد يقفز منه، عطور أشجار البرتقال نفاذة، يندفع داخل أشجار البرتقال، حشائش نمت وأصص مانجو مقلوبة، صرخ وهو يلهث: أين الوفاء؟ ويد عوض ما زالت آثارها على الفروع والورق والجذوع، يلهث وريالة تنزل شريطًا لا ينقطع:

- مش عوض اللي زرعك؟ مش عوض اللي زرعك؟

يعفر أشجار البرتقال بالرمل، سقط مطر من عينيه وبعض زهور وكثير من الأوراق الخضراء!

الموت في يدي

خرجت من مستشفي الدمرداش في العاشرة تمامًا، كان الجو لطيفًا والشمس في السماء باهتة. هل كان من الضروري أن تطلبي مني يا أمي أن أحضر لك شهادة وفاة أختي؟

مع أنني كنت متصورًا أمي قوية وكانت قوية بالفعل حتى كان يوم انهيارها، يوم أن وقفت ابنة أختي الصغيرة تلحُّ عليها أن تحضرَ لها أمها وكانت تختارها لا أعرف لماذا؟ مع أن أباها موجود وجدها وكل الأسرة، كانت تترك كل هؤلاء وتقف في مواجهة أمي: هتيلي أمي... حتى مسكتها أمي من أكتافها وأخذت تهز فيها (أمك ماتت يا سمر... أمك ماتت يا سمر) وأخذت تصوت صواتًا مرعبًا أشبه بجئير مخبولة، هزت الموجودين؛ فبكينا وهي سقطت مغمىً عليها وحملناها بعد أن رششنا عليها الماء، وذهبنا بها للطبيب وعلق لها الجلولوكوز وأعطاها حقنة مقوية، وعندما أفاقت كانت تردد : "مش عايزة

أشوف البنت دي... مش عايزة أشوف البنت دي" وتردد وأنا أهز فيها خلاص.. خلاص يا أمي.. أبوس أيدك إحنا في الشارع ..إنتِ مش مؤمنة؟! وحدي الله ودموعي المتحجرة بدت تفلت مني.

هل هذا مكتوب على لسبب لا أعرفه أن أظل هكذا أقوم بالأعمال المؤلمة التي يهرب منها الجميع؟

المستشفى بلا ملامح وإن كان في محيطها مساحة من الخضرة لم تفلح في التقليل من انكساري ومرارتي، المرضي متناثرون ما بين الطرقة والأسرة، الجدران تنشع رطوبة، وقفت أمام الموظف، في انتظار أن يستخرج الشهادة، كنت متعبًا وأريد أن أجلس على الكرسي ولكن شجاعتي خانتني فظللت واقفًا حتى حصلت على الشهادة، خرجت وفي يدي شهادة الوفاة.. ثم ركبت الأتوبيس الذاهب إلى المنيل لكي أذهب إلى المعهد الذي لم أكن أذهب إطلاقًا إلى محاضراته أو أشتري كتبه بتاتًا.. نزلت من الأتوبيس ثم تجاهلت الذهاب للمعهد وانحرفت في شارع موازٍ، وسرت إلى أن وقفت أمام عمارة من أربعة طوابق، صعدت درجات السلم المبري

حتى الدور الثالث. وقفت ثواني أمام الباب أحاول أن أرسم ابتسامة على وجهي.. لم أستطع.. دققت على الجرس، فتحت لي خطيبتي وابتسمت لي ابتسامة مرحة:
حماتك بتحبك... الكرنب اللي بتحبه
حاولت حماتي أن تقوم ولكن لم تستطع لثقل وزنها
قالت: هو عارف غلاوته عندي قد إيه
كانت تلبس عباءة زرقاء وأنا كنت خائفًا أن يحدث شيء يربكني فأبكي قلت: أنا عايز أخرج؟ قالت: مش حتاكل
- لا
- طيب ثواني.. هربت بعيني إلى الخارج ناظرًا من الشباك إلى الأشجار العارية من الأوراق، باحثًا عن تجمعات الطيور التي تكاد تخرم أذني
خرجنا إلى الشارع، الإسفلت مكسر والشارع مكتظ بالسيارات رغم أنه شارع جانبي، انحرفنا حتى وصلنا إلى الكورنيش.. جلست على الطوار وأخذت أنظر إلى البحر
قالت: تصدق أنا كنت حاسة إنك حاتيجي النهارده
كانت طيبة وداخلها شفاف بشكل لا يصدق وكنت مشفقًا عليها من النزول في أرضي المملحة العقيم، كان داخلي

يقين أن هذه البنت لن تكون من نصيبي، لا يمكن أن تكون كل هذه الطيبة والبراءة لي، حتى أنا نفسي لم أتخيل مرة واحدة أنها تسير بجواري باعتبارها زوجتي وبجوارنا، ولد أو بنت وأنا ضجر أو مرح، كانت الأحلام تنتهي عند نقطة معينة نقطة مبهمة لم أحددها، تعرفت عليها وأنا في السنة الأولي بالمعهد كنت دائم الجلوس بجوار البحر وحدي لم تكن رومانسية، أو أنني أعيش في خيالات أبدا، ولكنني لم أستطع أن أتواصل مع أحد حاولت أن أقيم صداقة، ولكن المعهد زحمة وكل شلة مكتفية بذاتها، أو ربما أنا شخصيا كنت غير قادر على التآلف، كان داخلي منطفئًا ولم أكن أستطيع أن أقفز على حالة وأمثل المرح والبهجة، كنت ضعيفًا ومهملاً رغم أنني مثلاً كنت في مرحلة الثانوية أكثر الشباب صخبًا ولكن شيئًا يسقط داخلك فجأة فتخطف منك البهجة والفرح وتهمل وتصبح منسيا،....

ابتسمت ونظرت إلى البحر الهادئ باحثًا عن كلمات ؛فسكتت ونظرت مثلي إلى البحر... قالت: شايف وأشارت نحو قارب عجوز وبنته أو حفيدته الصغيرة التي

تفـرد الشـبك فـي قـوة وعـزم قلـت: حيـاة صـعبة. قالـت: النهـاردة فيـه فـيلم فـي سـينما فـاتن حمامـه "المغتصبون" بطولة ليلي علوي، قايمة فيه بدور ممتاز... اندفعت سيارة في عنف، العربه حمراء تركب فيها فتاة وشاب يلبس نظارة تغطي مساحة كبيرة من وجهه.

شهادة الوفاة عرقت في يدي فنقلتها إلى يدي الأخرى، قالت: إيه ده؟ وسحبت الورقة من يدي.. ونظرت فيها وشحب وجهها واستغرقت في تفكير عميق ثم مدت يديها إلى وقالت: البقية في حياتك. نظرت إلى الأشجار العارية وأنا أمنع الدموع التي تتراقص في قوة.. قمت وتلفت ومسحت الدموع في كم القميص وسرت وهي بجواري تنظر إلى البعيد.. تنظر والصمت والشحوب يغطي علينا تركنا المكان والبحر والأشجار العارية، والفتيات التي على الشاطي.. حتى وصلنا إلى البيت قالت: مش ح تيجي.

- أبدا.

- طيب مع السلامة. وتركتني أمام الباب وصوت كعبها يرن: تك تك

الرقص في ليل ساخن

"كيهك" شهر بارد، والهواء اللعين يضرب الأبواب بعنف، والشوارع خلت من البشر وفي غرفة صغيرة في طرف البيت من البيت الكبير الذي تسكنه ثماني أسر، سحب "سلامة بخيت" أولاده ودخل بعد أن استأذن من الحاج بخيت.

إيه ياوليه، لقمة الواحد جاع، لم ترد، كانت مشغولة بإضاءة اللمبة نمرة عشرة، غبار من الليل تناثر في الأركان، صعد سلامة فوق السرير أبو ناموسية الذي كان يفخر به بين أقرانه بل بين أخواته على اعتبار أنه متزوج من امرأة من بيت ميسور، وقد تمسك الأب بالسرير أبو ناموسية ومراية، برغم أن كل ذلك أصابه العطب، فالمراية تكسرت ستين قطعة، والناموسية تمزقت والسيدة التي كانت حلوة ونظيفة تقدر تقول بكل أريحية ضربها جرب، وأصبحت عضما على عضمٍ، غبار من الليل تناثر في الأركان، صعد سلامة فوق السرير الذي بلا ناموسية

ووضع قدمًا على قدم وأخذ ينظر إلى السقف المعقود من الغاب الذي بدا مغبرًا، أحضرت أم فتحي المنقد ووضعت القوالح فيه، ودلقت عليه الجاز من الكوز وأشعلت في القوالح النار، العيال تهرش بفعل الحشرات:

- ياد يا فتحي، اِنت يا له، دخل المعزة وهات لها شوية برسيم

- أنا بذاكر خلي أشرف.

(اتنطر) أبي فجأة: قوم قامت قيامتك.

جريت وفتحت الغرفة وتذكرت أنني أريد التبول فتبولت بجوار المعزة، وسحبتها فتسلل الدخان، وتآكلت القوالح وتحول إلى جمر خالص. أم فتحي بدأت تقمر العيش البتاو على الركية ويصدر منها صوت هادئ رتيب، وعينها الضيقة ينزلق منها الدمع من آثار الدخان فتمسح عينها بكم الجلباب، أمسكت قطعة من النار وغرستها في الحائط وصدر صوت البق ينفجر، جرى أشرف:

- أمّه هاتي الكولحه، لم تأبه

- أبا أبا، مش جدي ها يبنى البيت بالطوب الأحمر؟

- آه

أنا كل ما أقول للعيال كده يقولوا: والنبي ياد أنت فشار انسلت قطة ودخلت الغرفة، الغرفة خانقة، وأخي أشرف يلعب مع المعزة ويأكل السريس، قفز الأب عندما رأى القطة وأغلق الباب

- قوم يا كلب يا بن الكلب حلق معايا على القطة.

قالت أمي: يا راجل سيبها دي الملايكة حرساها وإحنا في الليل

- اسكتي إنتي

نار همدت ومواء قطة في منتصف الغرفة وفرح مكتوم، أخذت القطة تدور بعينيها في فراغ الغرفة، وعندما شعرت بالفراغ قفزت في فزع، حاول أبي أن يلتقطها وهي تطير في الهواء لكن لم يستطع وتركت خمش أظافرها على يد أبي الذي صرخ: آه. ولحس الدم النازف من يده.

الغرفة عبقت بالدخان وصوت أبي الجهوري يمزع الفراغ وعيونه شجر التوتيا، ووجهه المدور وشاربه الهتلري

الـذي كلمـا رأيتـه ضـحكت: بتضـحك علـى إيـه يـا بـن الكلب، أشير إلى شاربه.

- دي زى هترر يا وسخ

كنـا نضـيق عليهـا الحصـار، وهـي تنظـر إلينـا فـي شراسـة ورعب وأمي تكح من الدخان حتى أحمر وجهها المزرق وبرزت عروق رقبتها، والقطة تدور وتزوم.

- يا راجل اقعد وريحنا الله يريح قلبك.

- اسكتي ياك سكت حسك.

- كده والنبي ما أنا مسكاها، وجلست .

- يا ولية القطة حا تدخل تحت السرير وحا تكفرنا الليلة دي

كانت عينا القطة تلمعان بشكل خفيف، حاول أشرف أن يمسك القطة ففلتت ودخلت تحت السرير، صرخ يا ولاد الكلب

قالت أمي: إية الليلة السودة دي

- دي ليلة أمك السودة يا بنت البغلة.

- يا راجل ما تنكدش علينا، اتهد ونام.

- أنا أتهد؟

أمسك أمي وأخذ يضرب فيها بالشلوت وبيديه في حركات هوجاء فدفعته أمي دفعة قوية فسقط على مؤخرته، ويده ضربت المنقد قام واشتبك مع أمي وأخذ يضرب بكل قوة، وقد سقطت التربيعة من على رأسها، فمسكته من الصديري وغرست أسنانها في صدره وأخذت تضغط بقوة وهو يضرب ويصرخ.دفعها بقوة فارتمت بعيدًا عنه، حاول أبي أن يعاود ولكنها أقسمت لتصوت وتلم البلد

توقف أبي:حاضر، إن ما ربيتك، . طيب يا بنت العضاضة، حاضر

- آه بتضرب ليه، الصمت غطَّى علينا لثوانٍ ثم قام أبى، وقال لفتحي: هات القطة من تحت السرير .

أنا خايف الدنيا ضلمة تحت السرير وكمان ودني بتوجعني

- ما احنا واقفين أهه

- معلش يا با خلي أشرف

- يا ولاد الكلب، اقترب مني وضربني بالشلوت

- يـا راجـل السـرير تحتـه كراكيـب وتكـون فيـه حاجـة تقرصه.
- عليا الطلاق إن ما سكتي لتكوني طالق.
استـجاب أشـرف، ودخـل تحـت السـرير وأخـذ ينـادي القطة: بس، بس ثم خرج
- والمصحف والمصحف الشريف ما أنا شايف حاجة
- طيب إن ما وريتك عيال أولاد عيال.
دخل أبي تحت السرير وأخذ يزيح الحاجات والصمت غطي علينا وخيال ورق الغاب النازل من السقف يهتز ومواء القطة يزداد شراسة وأبي يعلو صوته: آه يا بنت الكلب.
خرج من تحت السرير وقد سقطت الطاقية فظهرت رأس أبي صلعاء وعلى وجهه علامات الانتصار برغم الدم الذي غطى يديه.
كنت أنظر ناحية القطة وعروقي متجمدة، شيء ما توقف وجعلني أبدو مذهولاً

وأبي يبدو في شدة الفرح وهو يضغط بشدة حول رقبة القطة وبطنها وهي تصرخ بشراسة وأنيابها الحادة تظهر جلية وعيناي تتراقصان بين التوتياء والزئبقي

علقت أمي الحبل في سقف الغرفة كما أمرها أبي، وتناثر الرماد الأسود فوق رؤوسنا والقطة تعافر وتقدم أبي من الحبل ومرق رأس القطة من الخية وشدّ بقوة ثم تركه، .

تنشد القطة وتتراقص رقصة وحشية بزئير حاد وكلما زاد تراقصها زاد ضغط الحبل، انزوت أمي بجوار الحائط تمسح دموعاً سالت منها، والقطة في النزع الأخير ترقص رقصة مسائية حزينة، تعزف لحناً جنائزياً، سيمفونية ألم، صرخ أخي فجأة، همدت القطة وتوقفت عن الرقص.

تقدم أبي وفك الحبل ورمي القطة في الخارج وأغلق الباب.

قال أبي: هاتي الأكل يا ولية.

قامت ووضعت طبق السلطة والجبن وبعض السريس والعيش البتاو الذي برد أمام أبي الذي تقدم وأخذ يأكل في نهم شديد!

ورد النيل

واقف فوق الكوبري الذي يربط المناشي بالجلاتمة.. مادا بصري هناك بعيدا، حيث يقف رجل عجوز على شاطئ البحر، وفي يده خطاف صديء يلتقط به أوراق ورد النيل الغضة، الطرية بجورها البيضاء الناعمة، خيوط دقيقة تغوص في الماء.. الشمس واقفة فوقي ترصدني وأنا مربوط بالنيل.. هدوء غريب ومركب صغيرة تهتز، ينزل إليها طفل صغير ويخرج من جوفها صنارة ويستخرج الطعم من علبة بوية زرقاء ما زال له أثر ملتصق بها، أزرق قاتم.

السماء نشفت، والإسفلت الأسود لين تحت عجلات السيارات القاسية القلب، امتدت يدي نحو طوبة وقذفتها بقوة تجاه البحر، نساء عاريات السيقان تغسل الألمونيوم وعدد الشاي، ملاعق سكاكين، جلباب ممزق من الجانب، عيال صغيرة تقفز من فوق الأحجار يقتربون من فتحة الكوبري وموجه العاتي وشيء من التحدي يوسم

ملامحهم، يطفون فوق الموج وصرخاتهم الرفيعة تنطلق في قوة، رجل يرمي علبة السجائر في البحر: يلعن دين دي سجائر.. دي أوسخ سجائر شربتها في حياتي يترك المكان وهو يسب وقد غطي هدير الموج على صوته.

أسمع صوت فرقعات ورد النيل تحت أقدام موظف الري الذي يرتدي بنطلونًا أزرق باهتًا وجاكت جينز مفكوك الأزرار.. فكرت أن أترك المكان، خاصة أنني تأخرت ولكن لم أستطع أن أترك صفحة النيل العارية إلا من أوراق ورد النيل التي بلا جذور، ذات الأوراق الخضراء العريضة الممتلئة، ناعمة وملساء، أدرت وجهي تجاه المناشي وسرت عربات ميكروباص تندفع وتدور في الموقف، صغير يجري: اقرأ المساء. ينادي بصوت ناعم تأنس له، يعني لازم سواق ٢١٤ يصمم يرجع من الجلاتمة.

وأنا في دوران الكوبري رأيتها قادمة هناك مندفعة بقوة، "مفيش فايدة" مزقته بإطاراتها الخلفية وسحقته بالخلفية.. عربة إسكانيا تحمل حديد تسليح لشركة قطاع عام، حاول سائق سيارة تويوتا أن يقف أمام العربة تراجع إلى

الوراء، التصقت الرأس بالأسفلت واندفع بالعربة بقوة فاصطدم بمقدمة السيارة الصغيرة، فرماها بعيدا عن طريقه وانطلق السائق المقلبظ الوجه الذي يرتدي سترة زيتية وبنطلونًا نبيتيًا متسخًا، كان يبدو وحشيًا
نزل سائق التويوتا يصرخ وهو يدور حول السيارة، بدا قليل الحيلة.
كانت تلافيف رأس القتيل كأمعاء حيوان مبقور البطن.. عجل الإسكانيا غاص بلحم الرجل في أسفلت الطريق، قطع اللحم تناثرت ساخنة، عارية من كل شيء.. الدم يتجمع ويتكون نسيج يتحرك بحرقة أحزان القلب الجاف يتسرب في الشقوق، التجاويف والبرك المحفورة في الإسفلت، برزت سيدة سوداء سمينة تلبس جلبابًا أسود صرخت: ولدي، ولدي (تذكر أنه في يوم كذا من شهر كذا أقدم حاكم دولة كذا بجز رقبة يوحنا المعمدان وأخذ الدم يفور)
تجمع الناس وحاصروا الجثة تماما، صرخات شفاه.. ضجيج، نظرات مسكونة بالفراغ اللا نهائي.. ابتسمت فتاه عارية الذراعين ثم بكت، وكلما طردت ذبابة حطت

على وجهها، إبطها منتوف، لحمها أسمر وكل ثانية تخبي حمالات الصدر تحت الفستان الأحمر الفج.
فيم كان يفكر؟ الرجل الملتصق بالإسفلت.. المحاصر بالعيون الشرهة، سائق ميكروباص يسأل: حادثة، حادثة.
- أيوه عربية سكانيا دهست واحد، يا نهار أزرق كل يوم واحد. داس على البنزين... انسابت السيارة على الطريق: الخطاطبة يا أسطى.
- وردان يا أسطي
تقدم رجل في الثلاثين، أكرت الشعر.. له شارب ضخم منحوت وفم واسع يبرز كرشه من بين أزرار القميص الأبيض المتسخ، صوت الأذان، كلب يبول.. رجل طويل عريض ضخم ينادي: واحد مصر إمبابة.
رجل ينسل: الصلاة، الصلاة..
- يا ناس حد يشترى جرنال الأهرام... المسائي... الجمهورية
خلعت امرأة جلبابها ورمته على الأرض، كانت امرأة نحيفة معها مشنة ممصوصة الوجه، عيونها غاطسة.. هالة

سوداء تحيط بعيونها، بريق خاص يحتوي تلك العيون البعيدة.

سحب شاب الجلباب الأسود وفرده على جانب الرصيف.. أزاح الواقفين بحزم، تذكر ساعتها الساحر الصغير الذي يدور في الموالد وتصورت أنها لعبة وأن هذا الساحر الجميل سيلقي بتعويذته وإشاراته وبعدها سيقوم الشاب مرة أخرى وسنصفق له

قرفص على قدميه وأخذ يلم قطع اللحم المتناثر على جانبي الرصيف ثم سحب الرأس السيالة، المرأة بدت تنشج نشيجا خافتا ودموع غزيرة تنز، صرخت الفتاه عارية الذراعين، نز الدم من بين أصابعه، غرق الناس في صمت وهو يجمع الجثة قطعة قطعة حتى انتهي ووضع الجرائد فوقها و اخترق الزحام وذهب ينظر إلى البحر ثم ارتكن على سور محازٍ للنيل...

تركت الجثة بعد سماع صوت سيارة الشرطة، فدخلت محل الفول أكلت سندوتش فول وآخر طعمية، وتجرعت كوب ليمون وعندما رأيت سيارة بيجو صرخت: أبو غالب يا أسطى. حشرت نفسي بجوار السائق...

أشجار الجازولين والكافور مسجية النيل، الموت ورانا: مين اللي حا يلعب النهارة؟

- الأهلي والمنصورة؟

- حد جاب المساء النهارده؟

شخير مفاجئ انتزعنا.. سرعان ما انفجرنا في الضحك: أنا باين عليا نمت، الصول ابن العرص مضطهدني، قال علشان تعليم عالي، يعني خريج أكسفورد.

أخذ يسب الجيش، والبلد والذي يريد أن يعيش فيها، قال السائق: الهواء يا بني ليه ودان

- إيه الجبن ده؟

- الجبن القريش ممتاز.

كان العسكري يبدو مقهورًا، المساء يدفع أمواجه والنهر العجوز ينسحب مذعورا.. عروق الليل الصلبة تقهره ويتوج سيدًا للمكان.. يا سيد الكون ماذا جنينا في فضائك، نزلت من السيارة وسرت تجاه البيت، الجامع ظهر بلمبات النيون الفجة.. دخلت الحارة حيث البيت يرقد غاطسًا في قلب الأرض بناه أبي في شارع الغرباء عندما جاء من بني سويف، وهو صغير وظل يعمل عند

المعلم عزيز لفترة طويلة وبعدها تعلم رتق الأحذية، صبور، يعيش وحيدًا، ساكنًا لا يهزه سوى إشارات قليلة حادة، وهزات خفيفة من رأسه، المحل مغلق الآن وهو يصلي المغرب.

أدرت مؤشر الراديو على البرنامج الثاني كان المغني يغني دور: "هي كانت فين عنيك يا يمامة"

خرجت إلى الصالة نظرت من الشباك على السماء التي كانت فيها النجوم بعيدة والقمر محجوب بالغيوم اللبؤة.. أو سيرة الأسد.

- يا أخي شفت.. الشحات ابن عبد الجواد الفحام. الواد المجدع فتوة وردان وأتريس وكفر أبو غالب وبني سلامة والحاجر والقطا والصحراء الغربية، اللي قتل اثنين من كبار البهوات ودوخ الحكومة السبع دوخات، البرمجي اللي شرب مائة زجاجة في كازينو السيسي في القناطر وكانت له ترابيزة لمكان الصعايدة المعلمين من أسكندرية لحد أسوان ولما الولد سيد القص قال: والله دا حرام وما يرضى ربنا نزل من على المسرح وكسر على

دماغه خمس زجاجات بيرة والدم طرطش على المعازيم وغرق الدنيا.

- آه يا أخي... دا واد برمجي وعترة ودمه سخن وبارم شنبه يقف عليه الصقر ملك الشقاوة، اللي علم الخط كله الرجولة والجدعنه دا حتى يوم أبوه ما ضربه كفين على وجهه وقال: يامره شق هدومه لحد الديل ووقف عريان قدام أبوه وشخر وقال: أنا راجل يابا أهوه وترك البيت والبلد ومصر كلها وذهب لليبيا في أواخر السبعينات بعدما البترول غرق الصحرا.. وهناك اشتغل في فندق وفي قهوة بيركن عليها كل الأجناس ولما اشتغل في مزرعة استخف بيه الليبي وشتمه، وقال: مصري خسيس ابن كلب..

سلت المطوة قرن غزال اللي اشتراها من سوق السلاح ومزق عروق رقبته واستولى على المحصول وعاد في منتصف الليل ولما عاد مصر استوطن الصحرا، وأجر لودر وصلح مساحة كبيرة من الأرض، وبنى البيت الموجود حتى الآن، ودخلت البيت ست الستات البنت

الحلـوة بنـت المهـاجرين خريجـة دبلـوم التجـارة ودفـع مهرها ألف جنيه أيام الجنيه ما كان جنيه.

بنت بيضة على حق ربنا، وشعرها ليل سايح ورقبتها زي الجمـار وسـيقانها الملفوفـة تنتهـي عنـد القـدم بخلاخيـل تشـخلل لمـا تتمخطر في البلـد، وتسـتفز رجولـة العـواجيز الجالسـين علـى المصـاطب، العـاطلين مـوظفي الوحـدة المحليـة وكـوادر الحـزب الـوطنى.. الفلـوس نهـر جـارى والسـطوة علـى البشـر تزيـد والحيـاة تمـر فـي رغـد مـن العيش، يصحا في آخر النهار يقوم يشرب خمسين حجر حشـيش وكيلـو ونصـف لحمـة متخـدع فـي بصـل وثـوم وطماطم وعندما ينتهي من الأكل يقضي وطره، ويقضي المصالح التي تتشعب باستمرار.

هـذا الرجـل الـذي تتصـوره رقيعًـا عنـدما يرتـدى الجلبـاب الأبيض ويسرح شعره على الفرقة، والسيجارة المارلبور في فمه تـاجر مخـدرات وبلطجي جامـد زارع في قلـوب الناس الخوف والرعب.

هـذا الرجـل وجـدوا زوجتـه سـكرانة طينـة وعاريـة فـي الطريق الصحراوى في سيارة غرباء.

لقاء

كنت في انتظارها في نفس الميعاد من كل أسبوع، في غرفتك الكائنة أعلي البناية الشاهقة التي استأجرتها حديثا على أطراف المدينة، تحيط بك الزراعة من كل جانب تقريبًا، وإن كان ذلك يؤلمني في شيء، فالعزلة مصدر فرح بالنسبة لي، ولكن غيبة الأشياء الضرورية والانسحاق المريع في العمل كسر روحك.. الغرفة مطلية باللون الأخضر، لون غريب إضافة لكون الغرفة عارية من الأساس فبدت شديدة القبح، خلعت ملابسك وارتديت بنطلون بيجامة مخطط بخطوط طولية سوداء وبيضاء عريضة من الكستور، وجلست بالفانلة الحمالات وارتميت على السرير الصاج، نظرت للساعة وأحسست بالبرودة تغزو جسدك، التففت بالبطانية، سمعت صوت على درج السلم أدخلت المفتاح الموجود معها في الباب دخلت، قمت وسلمت عليها: مساء الخير..

لم تلحظ تغيير تسريحة شعرها، جلست إلى جوارك، بدا وجهها لامعا وعيونها تتوهج.. كانت تلبس "بنطلون جينز وبلوزة بيضاء وجاكيت من الجينز... لم تر التفاف ثديها، ولا الأحمر القاني في شفتيها قالت: بعت لي جواب اليوم، ويقول إنه يحبني وبيموت فيا" حاولت أن تقول شيئًا لم تجد، حارت ونظرت إلى السقف، قلت لما تمشي سأحل لمبة الكهرباء المغبرة من بصق العصافير وأقوم بتنظيفها جيدا حتى تكون الإضاءة أكثر قوة.

قالت: كان الجواب معطر ومنثور عليه ورد، ورد حقيقي لكن جاف مسحوق.. وكاتب فيه إني أجمل واحدة في الدنيا وإنه مش قادر يعيش من غيري.

قلت: دا مش أول جواب بعته هو ليكي كان الكلام ده في الخريف

قالت: أنا مش فاكره حاجة زي دي.

زاد الصمت وتكاثف وبدا ثقيلاً ومعتمًا، التقطت الشنطة وضمتها إلى صدرها وقالت: أنا ماشية ويمكن أجي الأسبوع الجاي

لم يرد، أغلقت الباب وراءها بعنف وسارت.

بحار الغضب

وهو يفتح الباب أشار لأخيه وقال: أبونا باين عليه مات خلاص... أزاح الراقد في ركن غرفة الخرق التي يتغطى بها فظهرت عيناه الصغيرتان اللتان ترقدان في غور داميتين، كانت النظرة وكأنها رصاصة استقرت في ذهنه ؛فظلت هذه العين تخايله وتضغط على روحه، لم ير عين بتلك القسوة والمرارة أبدا.

سار في الطريق وحيدا يلبس قميصًا من الدبلان يصل إلى ركبته ووجهه المربع لفحته أمواج الشمس اللاهبة، وكأنه كان يحبس الرزق فبعد الموت تدفق الرزق بلا حدود أو آخر:

جلد وجهه مهترئ، يسير مندفعًا تجاه الموت الراقد أمامه بعرض الكون.. اخترق صفوف المقابر حتى وصل إلى مقبرة أمه تآكل جدار المقبرة برشح المياه الجوفية، خلاء، حوض صبار ناشف، اقترب من عروق الصبار، وجذب فرعًا وأخذ يستحلبه في بطء: هل جفت الحياة؟

استغرق في التفكير حتى انسكب عليه ظل طويل، نظر إليه وقام زاعقًا: أنت إزاي تقول الكلام ده عليا؟
قال الذي يلبس جلبابا كوريا ماركة الوردة المائية: طيب أنت تصدق إني ممكن أخونك؟
حاول خلالها أن يبتسم فخرجت ابتسامة صفراء: لم يدخل أحد غيرك بيتي... كان يرتعش وعلى حافة السقوط من التوتر والضعف... حاول التماسك بمسكه من ياقة جلبابه بقوة وكأن هذه المسكة تحفظ توازنه فبدا أكثر تماسكًا: سيب. حاول أن يتكلم ولكن نهيق الحمار بدد صوته في الفراغ... ترك يديه تسقطان جواره فبدت الجلابية مطبوع عليها أصابعه الوسخة.
مين بس اللي قال الكلام ده، مسح بطرف الكم الدموع التي تنز، ظهر حمار أسود يطارد حمارة حتى حشرها في طريق مسدود؛ فاستسلمت بقفز الحمار عليها وغرس أسنانه في رقبتها
قال الذي بوجهه حب الشباب: يله بينا.
سارا بين المقابر، ثم قال الأبيض ذو الشعر الأملس إيه رأيك وأشار إلى مقبرة فوهتها ما تزال طرية: ضيف جديد

قال وهو يضغط على البثور بقوة حتى انفجرت ونزت دمًا وقيحًا وسائلاً أبيض: هل تتصور أنه بين الملكين يحاسب.

قال الأبيض: لا أدري. وبرقت عيناه.

اتجاهات مهتزة

كان النقاش محتدمًا حول هل مات المؤلف بالفعل؟ أم أن هناك أملاً في إنقاذه؟ وعندما هم الناقد الكبير بفتح فمه كان صوت عامل البوفيه يهمس في أذنه جاهد لثقل وزنه في الدوران ليكون في مواجهة النادل، وعندما استوعب الرسالة ترك الحلقة النقدية في عجالة، واندفع في قوة تجاه الباب الخارجي لأتيليه القاهرة...

أطل على الشارع لم يجد أحدًا عاد لاهثًا باحثًا عن النادل الذي وجده يصب القهوة لفنان تشكيلي شهير ومشهور بشدة تأنقه، مع أن هذه الأناقة لم تشفع له عند ربة الفن لكي تلهمه إلا الخواء الذي يطفح من على سطح اللوحة، انتظر حتى انتهى واستغل فترة الانتظار المضجرة بمرمغة المنديل في بحر عرقه الذي ينز هربًا من كرش يحوي كمًّا مريعًا من الدهون. عندما رآه النادل أشار وسبقه حتى انزوى في نهاية المستطيل المخصص للندوات الشعرية والقصصية التي شهدت تاريخًا عامرًا

بالمنازلات النقدية، إلقاء القصائد العصماء والقص بعيد الأغوار (ليس هذا موضوعنا لم يأت النذل ابن النذل) فعاد حتى وجده في غرفة عرض اللوحات خارجًا بكوب فارغ وقف في مواجهته فتراجع، تأمل بعض اللوحات التي كان يجدها فقيرة تستلهم تيارات ومدارس غربية معينة وتفتقر إلى أي خيال، مشنوقة في إطار من الخشب لم يركز في شيء رغم بحلقته في اللوحات حتى توقف تحت المكيف، فجف العرق، ابتسم ونظر إلى النادل وأشار إلى اللوحة وقال:

"دي أجمل لوحة في المعرض"

وأشار إلى التكييف ساخرًا وضحك، ثم اقترب من العامل، ووقف في مواجهته وهو يمسك يده بيده الأخرى حتى يوقف رعشة يده التي لم يستطع أن يسيطر عليها وقال: مفيش حد موجود بره

قال: اِنت عارف يا دكتور، أنا أكذب ليه؟

قال: قلت شعرها طويل أسود ووجهها مدور

- فعلا

- ماكياجها خفيف صح.

- الشفايف لونها إيه؟
- لون التوت .
- لون التوت!!
أخ. وضع يده وراء ظهره وأخذ يدور على اللوحات ثم توقف، بدا يعرق ولم يعد قادرًا على الكلام: كانت لابسه إيه؟
- فوق بادي
- أبيض .
- فعلا حضرتك أكيد عرفتها.
- والبنطلون؟
- رمادي.
- عذرا ولكن ترتدي سوتيان؟
- البادي على اللحم كان جسمها باين خالص، يشف عن ثدييها اسمح لي، وذراعها أبيض زى الفل.
زاد توتره بشكل عنيف: مقالتش رايحة فين؟
- دا مش دوري يا د... تسمح لي.
خرج تذكر أنه يحضر ندوات حزب التجمع... كافح وهو يصعد الدرج، حتى أصبح في مواجهة لافتة الحزب التي

قرأها حزب التجمع الوطني الديمقراطي الوحدوي، خلع النظارة وأخذ يقترب من اللافتة التي كانت مبهمة... فيه إيـة؟ الخـوف أدخـل مكتـب رفعـت السـعيد أجـد كمـال الشـاذلي...أخـذ يـدور لعلـه يجـدها لـم يجـد أحـدًا.. نـزل الـدرج... حـرم مـن أن يـدلي برأيـه فـي الموضـوع، هـذا المؤلف اللعين لا يكف عن المراوغة... أخ لعلها ذهبت لمطعم أسماك النيل مكاني المفضل في الأكل، ذهـب لـم يجـد أحـدًا، ولكـن وجـد ديـوان شـعر مهـدى مـن شـاب، حمـل الـديوان وسـار وفـي انحرافـه تجـاه ميـدان طلعـت حـرب سـقط منـه الـديوان، تركـه وسـار تجـاوز السـيارات الواقفة حتى أصبح تحت تمثال طلعت حرب، وقف ينظر بقلق بالغ في كل الاتجاهات.

رائحة جسد

في نهاية شارع السهراية حيث تمتد أمام العين مساحة هائلة من الصحراء الصفراء القاحلة والمقابر، وجنائن المانجو المخيفة، يرقد بيت متهالك توارثته أسر لا تحصى، وإن كانت ظلت تضمر بفعل أشياء كثيرة مثل الموت والهجرة والجنون، وصفصف هذا الكيان الخرافي على السيدة التي لم تنتبه إلى كونها وحيدة إلا بعد أن فاتها سن الزواج، فقررت أن تتاجر خاصة أن الحيل التي وفرتها الطبيعة لها لم تعد مجدية، فقد ظلت لفترة طويلة تدبر حاجاتها بالبيع في البيت من خشب قديم وحديد وطلمبة وغيرها، إلى أن سلتت حديد الشباك فقررت أن يظل البيت كما هو حتى تموت، الشباك مغلق، ومرسوم على الباب جمل والباب مصنوع من الخشب الثقيل ومغروس به مسامير صدئة ومبطوشة في خطوط متوازية. الأرضة غرست مخالبها في الباب الذي يستند إلى حجر ضخم، كانت جميلة في غاية البهاء

ويبين عروقها شجر في جسدها ويحكى عنها أن رجلاً وكان فتوة اقتحم عليها المنزل وأراد أن يضاجعها بالقوة..

وضع قدمه على الشباك وصعد على السطح.. ونزل على السلم المغروس في وسط البيت وعندما أزاح عنها الغطاء والمطواة مسلطة على رقبتها.. قامت عينيها تلمع في العتمة. :عايز إية يا فلان؟ ومسكته من كتفه وأخذت تهز فيه حتى سقط على الأرض وبعدها وجدوها في الشارع منزوعة الجلباب في قميص نوم شيت مزهر ويظهر لحمها والواد سيد يدق على الطبلة بقوة، وهي تشخر كامرأة لبؤة تنادي سيدًا ما.. وعندما مر رجل عجوز ضربته السنون، وسقطت أسنانه وقال: طب عليه الطلاق دي عايزه واد يكون شارب من لبن أمه يوزنها ويرجع عقلها الضارب.

لم يلتفت أحد لكلامه خاصة أنه شخص قليل القيمة لا يمل مطاردة زوجات أبنائه حتى اتفق الأبناء، وتدبروا أمره بعلقة تمام بعدها دخل الجامع وصلى صلاة الظهر، وأظهر علامات الورع بعدما ترك السبحة تفلت من يده

وبالغ في ذلك، وإن كان يحن للوساخة؛ (فيزنق) امرأة في حقل ذرة أو يجري وراء بنت، ثم حاول أن يبعد الملتفين حولها ولكن دون جدوى فقد كانوا مأخوذين مسحوقين تحت وطأة حضورها ولم تتوقف حتى سقط سيد من الإعياء وهي إلى جواره حاولوا خلالها أن يرفعوها من الأرض أبدًا. وظلت هكذا حتى قامت فجأة ودخلت البيت ولا أحد يعلم ماذا تفعل داخل البيت تنادي وأنت تسمعها وهي تصلي.. دون أوان الصلاة

خالة سيدة.

ترد على طول.. لو حد عيان تدخل. لو حد مربوط موجودة. خالة سيدة، كباية شاي، حاضر، فص ثوم، زهرة. تدخل كل الأشياء موجودة فيه الطماطم مشابك، خضار طبيخ بايت، جبنة، مش في صحن صناديق ببسي فارغة ترابيزة. اليوم كانت قلقة وكأنها مهمومة تدخل ثم تخرج ثم افترشت وسط الدار ونامت وبدا شخيرها ينتظم ثم قامت فجأة ونظرت إلى السقف وجدت ثعبانًا ضخمًا، أزرق يزحف على الخشب ثم يسقط بالقرب منها... هل صرخت؟ وقف الثعبان على وجهه في

مواجهتها وعيونه تشبه عيون إنسان.. تلمع في الظلام وتطلق شررًا مخيفًا... متجمدة كانت. لم تفعل شيئًا سوى أنها رأت ملائكة تطوف حواليها، وتضرب بأجنحتها الأسطورية في الهواء.. زحف الثعبان على جسدها فابتردت.. زحف حتى تجاوزها فأوغلت في الصمت والابتراد حتى اكتملت برودة، وتوقف انتظام دقات قلبها.

مر يوم والثاني والثالث والرابع ضربت فيه الطماطم وتعفن الطبيخ واندفع الدود من الجوافة وتهتك الجسد . والرائحة تملأ المكان وتتصاعد حتى اكتمل البيت رائحةً، وفاض فخرجت للشارع في قوة

التعالب

- مات.. عبدالوهاب بن عبد التواب الفحام ...و روحية مرات ابنه فهد كانت بترقع كل صوت يجيب آخر البلد...

- أنت رايح فين يا كبير.. هو مش غالي عليكم.. سيبوني.. والواد فهد كان زي المجنون.. ويلف على الناس ويقول: أبويا مات.. أبويا مات خلاص..... ومحمدين الكبير شق هدومه وطلع من دينه وبقى يجعر زي الفحل ومراته أغمى عليها وجابوا لها الدكتور عبد الستار.. وقال سليمة.. وابنه المتعلم في الهندسة اللي ما نزلش البلد من سنين وأول ماجه قال: أدخل معاه... أبويا يا ناس.. ما فيش رحمة؟!.

وأكابر البلد وأعضاء مجلس الشعب والشورى والعمد حضرت الجنازة.. ورشوا ماء ورد على الكفن... وأقاموا صوانا وأتى مقرؤون من الإذاعة وتدفق ناس من البر كله.

٢

في آخر أيامه كان يسير شبه مخبول في الشارع إلى أن وقع في بركة مياه عطنة، ولما رفعناه لقينا ريحته زفره وجلابيته الكشمير اللي كان بيتعايق بيها في الأفراح بقت زي شبكة صياد معدم وراحت وسامته، الغندور لم يكن أحد يصدق أنه كان نائب العمدة أيام ما كان العمدة عمدة (واللي يلبص يتعلق من رجلية لحد ما يقول إن الله حق) ولما كان يمشى في البلد (يا أرض اتهدي ماعليكي قدي) وهو راكب الحصان بيلف حول الجناين والدم يطفح من وجه، ولما مات العمدة ورشح للعمودية، وسقط في الانتخابات اهتز وبان عليه الشرود لمدة طويلة حتى إنه لم يكن يتابع ما يدور حوله من حديث، ولا يشارك في شيء يظل جالسا صامتا رغم أنه لم يحدث تغييرا يذكر، فالأعوان موجودة والخباصون والأجرية والمنافقون والأرض والسيارات النقل والملاكي ونفس الاحترام ورغم ذلك شيء تسرب منه أحسه وتجاهله وكأن الأمور ما زالت قائمة كما كانت، تغاضي عن أشياء لا يمكن أن تحدث قبل ذلك مثلا أن يمر أمامه رجل

يلبس جلبابا جديدا أو صديريا أو لا ينزل من على الحمارة عندما يراه، أو يتجاهل أحد أن يلقي عليه السلام كانت هذه الأشياء رغم بساطتها من المحرمات ويذكر أنه رأى بالصدفة فلاحًا يلبس صديريًّا؛ فتم خلع الصديري وحرقه أمام الناس، فما بالك بمن يسير أمامه الأن وهو يدخن أو يضع قدما على قدم؟ انعزل تمامًا وتوقف عن الخروج ؛وأصبح عالمه محصورًا ما بين البيت والخروج للجلوس في الحديقة أو يجمع الإيجار حتى ترك كل ذلك للأولاد بعد ذلك، واكتفى بحق الدخان الذي أصبح المتعة الوحيدة الباقية، يشرب في نهم ولا تنقطع السيجارة من يده إلا في أثناء النوم القليل، وحتى عندما ينام يفزع مرات كثيرة يقوم من النوم، يشرب ماء ويغسل وجهه ويدخن سيجارة ثم يعود مرة أخرى للنوم، وحول حياة الطاهرة إلى جحيم بسبب طلباته التعجيزية وتصميمه الطفولي حتى إنه خرج عليها بسكين وكان يريد قتلها وعندما جاء أخو الطاهرة ليأخذها عنده بكت وقالت: أنا أم الرجالة مينفعش أسيب...

٣

ضرب في دماغه وصراخه جاب آخر الشارع والواد فهد سلت الشبشب وقال: إن ما سكت لأنصر الشبشب على وشك.

والناس تتحسر على الرجل اللي انسعر والجبروت اللي راح والقنديل اللي انطفأ وعلى أيام العز اللي راحت وجسمه اللي اتفتت وناقص يطلع منه الدود، ولم يبق جواره سوى الطاهرة وفى آخر يوم زعق فيما يشبه العويل أشار لهم بعينيه الذئبية؛ فحملوه وساروا به في اتجاه عينه، نزلوا من البهو الرئيسي إلى الممر المؤدى إلى غرفة السلاحليك بحثوا عن المفاتيح لم يجدوها فنزعوا الرزة بالفأس وزيك الباب، وتطاير تراب ناعم أقعدوه على المصطبة بعد أن فرشوها بالسجاد وتركوه كما أراد وعينه تتلفت في غرفة السلاحليك الفارغة ومكان البنادق الخاوى، والعنكبوت الذي يفترش السطح الزجاج المكسور والكرباج على جلود الفلاحين، نظر إلى يديه هنا خططنا للحرق والقتل....

تنهد ..

- أبويا مات والثورة قامت وأممت ٢٠٠ فدان وبقى مئة فدان وبدد الأولاد الباقي في شرب الحشيش والدعارة.. كله راح

الراحل المعطوب في الصميم رأى أباه يسير في الطريق وكلما رآه الناس فروا مرعوبين من الكرباج الذي في يد الأب راكب الفرس والواد عكاشة يسحبها في خضوع وذل والأعيان وكبار الملاك يسيرون وراءنا مطأطئي الرؤوس.

الرجل روحه اتخطفت وجسمه ضرب بالبرودة ونطق فجأة بأعلى صوته: يابا.. ومات.

الأشباء

سار في شارع محمد فريد سارحًا، ناظرًا بدهشة نحو وميض الأضواء اللامعة التي تصطدم بالإسفلت وتنشطر في الفراغ، والسيارات تمرق جواره في جرأة واقتحام مريب.. أحس ساعتها أنه صغير ووحيد في تلك المدينة المرعبة التي تأكل العمر في قسوة، تأكل الأحلام دون رفق.. دون هوادة.. واقفا في وسط الشارع بين البنايات الضخمة والمحلات المشحونة بالآلات الكهربائية، سانيو، تليمصر، توشيبا، ثلاجات، غسالات حقائب جلد.. شرابات، قمصان، فساتين، إعلانات تومض في الفراغ.. دائما رغم تركه البلد منذ فترة طويلة ما زال هو كما جاء أول مرة كلما سار وسط القاهرة وسط هذه المباني العالية وسط جيوش النمل التي لا تكل يشعر أنه تائه وأن مصيره السقوط في بالوعة المجاري ويموت، هذا الرجل مدكور الكهل الآن، ورث عشرة أفدنة وبيتا من دورين وسبعة رؤوس من الماشية وحصانا ومهرة

تصهل في الفراغ.. باع كل شيء واستجاب للقاهرة النداهة التي تصور أنه سيسحقها تحت قوة رغباته ولذائذه؛ ولذلك اندهش عندما دخل قهوة السلام كالعادة واصطدم وجهه بالمرآة، وهو يلعب الدومينو في حماس هائل، توقف عن الضحك وانسحب من الصحاب ولم يدفع وصورة وجهه مطبوعة أمامه، التجاعيد غزت وجهه وتساقطت أسنانه واختفي شعره الأسود تحت سطوة الأبيض وعيونه بددت.. وانحني ظهره وبدا يسعل بشدة.....

لقد سرقت.. قالها ذاهلاً. من سرق عمري؟ من سحب الأحلام من تحت قدمي؟ من جعلني أحارب في أرض غير أرضي؟

يسير بقوة وعروقه تنتفض. من أمسك مدية وسار ورائي وبيده القوية الملعونة وضربني في الصميم، ضربني بعنف حتى أفرغ مني ذاكرتي وجعلها نهبًا للغربان والبوم، التي بدت الأحلام واستهلكتني، لا يمكن أن أسكت.. عمري يتآكل مني.. ينحدر إلى الهاوية، يجب أن أوقف كل هذا.....

صرخ في وسط الشارع يجري بين المارة والسيارات ولا يبالي بسبب أصحاب السيارات يبحث بقوة عن صورة جميلة انطبعت في ذاكرته

حلم

(١)

ربط بطانية قديمة بحبل من تيل، وقبل يد الأب، بكت الأم وحاولت الابتسام ولكن لم تستطع، وحمل كيس نايلون به بعض ملابس داخلية وبيجامة من الكستور، خرج من البلدة وهو يحاول أن يؤهل نفسه للعمل في مهن حقيرة، ليس هناك طريق آخر . عليه أن يحتمل برد الشتاء القاسي خصوصًا أنه سينام على سطح العمارة في غرفة معرشة بالغاب، والهواء يضرب فيها بعنف فتتحول إلى ثلاجة والبطانية خفيفة.

(٢)

في اليوم الأول والثاني لم يعرف النوم قلقًا، والثالث نام تعبًا ورأى نفسه يضاجع إحدى الفتيات تحت كوبري إمبابة، وكان مرعوبًا أن يراه أحد خاصة أن صلاة الجمعة كانت قائمة، والخطيب يتوعد الزاني والزانية وكأنه يراه

ويصف ما يجري، وهو لم يعد راغبًا في ممارسة الجنس فقط، يريد أن يقوم رغم عدم إمكانية القيام بالمطلق وكأنه التصق بها بلاصق، وعندما استطاع القيام كانت التي تحته تئن وتتوجع، قام فزعًا، وصوت المطر يرن على البلاط والصواعق والرعود تهز الكون قام وهو يئن من التعب، والبرد يضرب عظامه أحضر الحلل الخشب الموجودة في الغرفة ورصها على جسمه وتركها ونام دون دون حركة واحدة.

عصفور

طفل صغير مقعد يعيش وحيدًا، ويحب العصافير، كان يريد أن يكون له مجموعة من العصافير يربيها في قفص، ولكن لم يساعده أحد، الولد سيد ابن إنشراح يصيد العصافير بالنبلة، ويقتلها كان صيادا شاطر يضع الزلطة في النبلة، وينشن (تك) تكون العصفورة في الأرض مرمية ومفصول رأسها عن جتتها، أما هو فينشن فلا تصيب بل تبتعد مسافة بسيطة وتسقط وتضحك العيال فيه إيه؟ بكى أنا عايز عصفورة؟ عصفورة مش مهم تكون كبيرة أنا عايز عصفورة وخلاص، تركت أمه الذي في يدها وأحضرت له فرخ البط الصغير وناولته له:

- العب بيه شوية أوع تؤذيه.

- حاضر.

جفت دموع الولد القعيد، وأخذ يلعب مع فرخ البط يتركه الفرخ يسير ثم ينقض عليه ويمسك به، ويضحك يزحف وراء الفرخ ويحثه على السير، اجرِ.. اجرِ يا عبيط

أنا همسكك، اجرِ، سرعان ما يمسك الفرخ ويقبض عليه بكف يده والفرخ ريشه ناعم وجميل ومستكين في يد الولد الذي سمع صوت زقزقة عصفور يأتي من مكان ما من الغرفة، أخذ يلتفت هنا وهناك.. آه.. هناك في نهاية عرق الخشب، ينتقل برشاقة من عرق إلى آخر، إلى سلك اللمبة، أغلق الغرفة وفكر في اصطيادها بالنبلة، لم ير شيئا، فتح الباب مرة أخرى ورقبة المقعد منتصبة نحو العصفور، وهو يفكر كيف يمسك النبلة وينشن (تك)، ويفصل رأسه عن رقبته، يضغط بقوة على فرخ البط ويتخيل العصفور ملقى أمامه ينازع الموت، طار العصفور وتنهد "المرة القادمة لن تفلت" نظر إلى يديه كانتا مخضبتين بالدم.

على كرسي متحرك

لم يجد أحدًا في البيت، أغلق الباب ودفع الكرسي المتحرك تجاه غرفته بغضب فاصطدم بقطعة خشب ؛فالتوت العجلة الأمامية، وفقد التركيز فسقط على الأرض، وقد جرحت يده ورجلاه من الكرسي المتحرك، ظل صامتًا لفترة منكفئًا على وجهه كابسًا مكان الجرح بيديه حتى توقف الدم عن النزيف، زحف على يده جارًّا قدمين صغيرتين مفتولتين، ارتفع بجسمه عن الأرض وحضن السرير وضغط بذراعه فارتفع نصفه الأعلى فارتمي على السرير، سحب بيديه رجله المعطوبة وتمدد على السرير، خلع بنطاله، وتحسس ركبته وكأنها قدم ميت.. تحسس ذاته وشعر عانته ثم انتزع الشعر بقوة، سحب العكاز وبقبضته القوية، ضرب الزجاج فسقط قطعا صغيرة متناثرة ودخلت الشمس قوية لم يحتمل أشعتها فانزوى في ركن، لم يحتمل الظل، زحف على قطع الزجاج المتناثرة بلا مبالاة وصعد في مواجهة

الشمس مستندا بذراعه على حافة الشباك، تاركًا نصفه الميت وراءه ونظر إلى السماء وصدره يرتج من الغضب.. امتداد من حقول الفول الأخضر تأخذ مساحة واسعة من الأرض، دموعه كادت تفلت منه، لماذا تلاحقني؟، لماذا لم أستطع تحقيق شيء طوال حياتي هل العجز الجسدي قهر روحي وسحقني؟ أم أن بذرة الهزيمة داخلي وحدي، فكثير مثلي يمارسون حياتهم بشكل طبيعي، وينجحون ولكن أنا الوحيد في هذا الكون الواسع الضعيف، وخائب الرجاء، انهمد على السرير، ملاءة مبقعة، ساق حديدية، كتب ممزقة، مجلات بها صور قذرة وممارسات شاذة، نزل من على السرير وأعاد الكرسي المتحرك إلى وضعه الطبيعي وقفز عليه بقوة ذراعه؛ فاستقر عليه وبدل بيديه تجاه الباب، فتح الباب، فضاء صحو.. خلاء.. ترك الباب مفتوحًا وسار وسط الحقول باتجاه البحر، لم تستطع مساحة الخضرة أن تحد الغل الذي في قلبه تجاه الحياة وتجاه ذاته وصل إلى حافة الجسر، ونزل بهدوء المنزل حتى وصل إلى شاطئ البحر، امتداد البحر أمامه شاسعًا وأمواج البحر تتدافع في

هيـاج.. نبـات ورد النيـل الطـافي علـى سـطح البحـر يتـأرجح.. جزيـرة صـغيرة تبصـق فـي وسـط البحـر، لـو أسـتطيع أن أعـوم حتـى أصـل هنـاك، الجزيـرة الصـغيرة يضـرب فيهـا المـوج بقـوة وعنـف وهـي لا مبـالاة، أمـا مـن نهاية؟ نظر إلى مساحة المياه الممتدة أمامه فتسرب إليه فـرح، أخـذ يزحـف علـى الشـط والملابـس تبللـت فخلـع ملابسـه وركنهـا علـى الشـاطئ، وأخـذ يعـوم فـي الميـاه الضحلة، وجد قاربا قرب الشاطئ تقدم كتمساح صغير، يـده الكبيـرة تـبطش وتغـوص فـي الطحالـب، وورد النيـل والغائط الأزرق إلى أن وصل إلى القارب الصغير حاول أن يصـعد ولكنه فشـل، جرجـر القـارب بقـوة حتـى غرسـه فـي الشـاطئ واسـتخدم المجـداف سـلمًا إلـى أن امتطـى القارب، تذكر الأب والأم ماذا يفعلان الآن؟ هل يفكران فيه، .. طبعًا، وعندما لـم يجد أحدًا على امتداد الشوف تشـجع وغـرس المجـداف فـي الرمـل ودفـع بقـوة فـانزلق القارب في البحر، أخذ يجدف حتى تعب فترك القارب للمـوج، وأخـذت مشـاهد حياتـه البائسـة تمـر أمامـه حتـى نسي القـارب تمامًا، وعنـدما تـذكر كـان القـارب قـد ابتعـد

كثيـرًا عـن الشـاطئ، أحـس بـالخطر، أمسـك بمجـداف القارب، وأخذ يحاول العودة مرة أخرى، وبالفعل سيطر على القارب وأخذ يجدف ضد الريح والتيار العنيد يقاوم بصلابة.. بدا التيار يجرفه لم يعد مسيطرًا على القارب تمامًا والموج يسحبه ويدور به، حتى تعب، بدا مرعوبًا ومذهولاً والمركب تتجه بقوة نحو مسار لا يرغب فيه، ترك المجداف والدوامات القوية والموج العفي يضرب حتى امتلأ القارب بالمياه وبدا يغوص وهو ساكن لا يتحرك القارب ودموعه تلمع في ضوء الشمس.

المحتويات

الإهداء..... ٧
القسم الأول..... ٩
عايدة يوسف (١) ١١
عايدة يوسف (٢) ٢٣
عايدة يوسف (٣) ٢٨
عايدة يوسف (٤) ٣٦
٢ـ زفرة المحب الأخيرة..... ٤٤
رامة والتنين: (١) ٤٨
رامة والتنين (٢) ٦٠
القسم الثاني..... ٧١
جسد في ظل ٧٣
دغل ٧٦
العاهرة الصغيرة ٨٠
حرائق..... ٨٢
عواء..... ٨٩

الكائن ٩٥
عجوز ٩٧
الموت في يدي ٩٩
الرقص في ليل ساخن ١٠٤
ورد النيل ١١١
لقاء ١٢٠
بخار الغضب ١٢٢
اتجاهات مهتزة ١٢٥
رائحة جسد ١٢٩
الثعالب ١٣٣
الأشياء ١٣٩
حلم ١٤٢
عصفور ١٤٤
على كرسي متحرك ١٤٦
المحتويات ١٥٠